ܘܙܝܪܘܬܐ ܕܡܪܕܘܬܐ ܘܥܠܝܡܐ
ܡܕܒܪܢܘܬܐ ܓܘܢܝܬܐ
ܕܡܪܕܘܬܐ ܘܐܘܡܢܘܬܐ ܣܘܪܝܝܐ
ܫܪܫܠܬܐ ܕܡܪܕܘܬܐ ܣܘܪܝܝܬܐ (60)

وزارة الثقافة والشباب
المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية
سلسلة الثقافة السريانية (60)

بابنا المغلق

ܗܘ ܬܪܥܢ ܣܟܝܪܐ

ميشائيل لازار عيسى

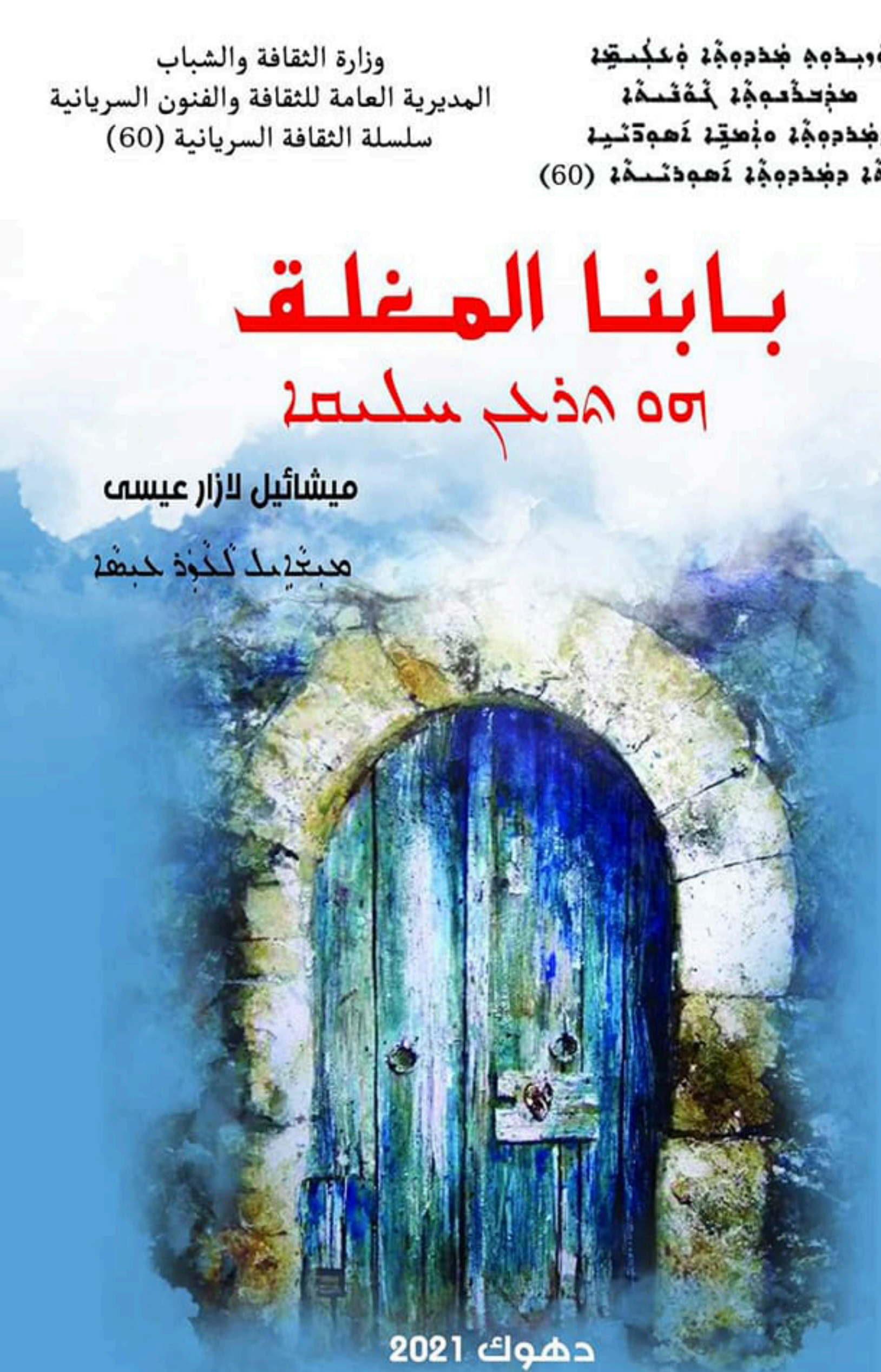

ܡܝܟܐܝܠ ܠܥܙܪ ܥܝܣܐ

دهوك 2021

ميشائيل لازار عيسى
بابنا المغلق
دهوك 2021

ميشائيل لازار عيسى

بابنا المغلق

ترجمة

آدم دانيال هومه

القاص والمسرحي ميشائيل لازار عيسى في مكتبه

غرباء

غرباء في هذا العالم
مثل القمر الطالع فوق المدن الكبرى
يسلِّمنا الرحم إلى الريح ، والريح إلى التيه
و التيه إلى القبر.
غرباء فوق رصيف التاريخ
نقايض باللقمة دم القلب
نترنح في دخان الأقاليم، ونستعطي الأكفان
نرتاد الحانات لنطفئ بين نهود بغايا العصر
و بين الأفخاذ المنكوبة حُمَّى الجنس
لنكفِّر عن خطايانا
و نتبرأ من آثام ملكوت الغربة
ندفن في الأكؤس كل هموم الماضي، وآلام الحاضر
و أحلام المستقبل.
قهر ... وحنين ... وبكاء
وأناشيد منذورة للأرض .... تتنهد في الريح
و أبواب مغلقة على امتداد الأزمان

هويّات مزورة ... و أسماء مستعارة
عناكب اليأس تتناسل في مدار جمجمة الحلم
و تعشعش في سقف القلب
وفي أرجاء الجسد نحس دبيب نمال المجد
نرقص .... نضحك .... نسكر
ثم نتذكر ... نشتاق
نغني ونرقص في آن واحد.
حين نلمح صورتنا في مرآة الغربة
والوطن يدور في فلك الدم
نبصق ... نلعن
و نكفر بالله .... ثم ننام.

آدم دانيال هومه

الفصل الأول

لم تكن الطريق التي كانت تؤدي بي إلى منزلي شاقة فحسب، ولكنها كانت تحفل بالكثير من المنعطفات نحو اليمين واليسار، إضافة إلى الصعود والهبوط، والتعثر بقطع الحجارة والحصى التي كانت تخزّ رأس قدميَّ المنهكتين. ولكن، كيفما كان، ومهما كانت هذه الطريق شاقة وطويلة فيجب عليَّ بلوغ نهايتها، لأن الذنبَ ليس ذنب الطريق وإنما هو ذنب ذلك المسكين (أبي) الذي وضع أساس بيتنا قبل خمسة وسبعين عاماً في تلك القرية الواقعة على خاتمة هذه الطريق، في وسط المعمورة و (تحت رحمة الله).

لقد قطعت شوطاً لا بأس به، وراودتني خلال ذلك خواطر وأفكار لم تتحقق بعد (ربما قد تتحقق). ولكن الاحتمال الأكبر أنني لم أبلغ منتصف الطريق بعد، وقد يكون مردُّ ذلك إلى السنوات العديدة التي انصرمت، بحلوها ومرّها، وأنا قاطن في هذا المكان لم أغادره قط إلى أية جهة أخرى. مع أنني أذكر جيداً بأني قبل ثمانية عشر عاماً وستة أشهر سلكت هذه الطريق ذاتها، مع أنها كانت أسوأ بكثير مما هي عليه الآن.

لقد تاهت عن خاطري أسماء أماكن عديدة، واندثرت قرى كثيرة، وأحدثت قرى أخرى صغيرة (ربما يكون هذا مجرد وهم).

بلغت الآن منتصف الطريق (إن لم أكن أخدع نفسي) ولكني لم ألتق أي إنسان، رجلاً كان أم امرأة، ثيباً كانت أم عذراء. وقد يكون سبب ذلك كله

المطر والريح العاتية. فالطبيعة سادرة في جنونها، المطر والـريح الشـرقية ينهالان على وجهي كالسوط، ويجلدان الأرض والصخور الملساء الغارقة في الصمت.

هو ذا شهر كانون الثاني يحتضر في فراش الطبيعة، ويودِّع العـالم بأسـى والتياع مسلّماً إياه، بغضب ونزق، لشهر شباط. لا لشيء، إلا لأن هذا الأخير أصغر منه بيومين قارصين.

قبعتي مثقلة بماء المطر، والريح الهوجاء الباردة لا، ولن تفتّ من عزيمتـي أبدا. ولكنني بدأت أعرج من قدمي اليمنى. ولست أدري هل امـتلأ حـذائي بالماء أم بالدم الذي ينزّ بفعل المسمار الناتئ فيه حتى أصبحت علـى وشـك الوقوع مغشياً عليَّ نظراً لشدة ما أعانيه من ألم في قدمي، وليس هنالـك أي سقف أحتمي به، وأدعو بامتنان لصاحبه. فالسماء فاغرة أفواهها تنفث الوابل المدرار المتناثر بفعل الريح الشرقية. على أية حال، أنا موقن بأني بـريء. ولكني مع هذا لا أتهرب من وجه العدالة، ومن سنّة القدر.

إلى أين أتوجه. أدرك ذلك تماماً، وأعرف يقيناً مَن أنا. اسمي (إيشاي) واسـم أمي (شوشان) وهي التي أرضعتني الحليب المشعشع بالحبّ والحنـان حتـى بلغتُ ريعان الشباب لأقاسم هذا العالم الهمّ والعذاب مع أني كنت أتلمّس أحياناً نوعاً من الفرح بصحبة أصدقائي الأوفياء (عندما كنـت أنسـى، أو أتناسـى المرض المزمن الذي سبّبته لي لسعات سوط القدر)، أو لعدم وعيي وإدراكي بسبل الحياة الرشيدة.

قبل ثمانية عشر عاماً وستة أشهر خرجت من دار والدي (داود) وقلبي طافح بالغضب. كان غضبي عنيفاً ومضطرماً تؤجّجه رياح جهالتي واغترارِي بعقلي الصبياني لأني كنت أتمسك بالقدر من ضفائره بكل إصرار وعناد (مع أن قدري كان يمنحني الفرصة للتفكير بمنطق وروية وحكمة) ولكن جلَّ مطمحي كان محصوراً في ذلك الشيء الذي أحببته من صميم فؤادي، وعمق إرادتي.

الشيء الذي جاهدتُ من أجل الحصول عليه قد تحقق لي، لأني لم أسعَ لتحقيق شيء سواه. لم أبذل أي جهد لنيل رضاء والديَّ. ولم أصغِ لنصائح أخي بنيامين القيِّمة (لقد أفعمت قلوب جميع أحبائي باللوعة والحسرات لكي أسعد وحدي). ولكن سعادتي لم تدم طويلا لأنها كانت قائمة على رمال الغباوة والجهل وذلك لأني نبذت العلم وضربت بطلب المجد عرض الحائط، وتركت العنان لقلبي الهائم في الحب المجنون الذي أمطرته تلك الغيوم الداكنة المتلبدة بالسحر في سماء عيون زوجتي (إستير). وكانت إستير، بدورها، أكثر مني ضلالا في جنون الحب حتى زلّت أقدامنا عن جادة الصواب، واشمأزت نفسانا من العلم، وبناء مستقبل زاهر وطيد الأركان (وهكذا تربعت على عرش حبنا اللذيذ أيام مفعمة بالمرارة والبؤس والعذاب).

لقد كان حبّنا من لدن الله. ولكنه كان سابقاً لأوانه. إذ خضنا فيه، ونحن معصوبو العيون، ولكن رغم ذلك لم يخلق في البدء لينتهي إلى الذبول والزوال. بل لا زال حيّاً بالرغم من أن إستير قد رحلت وأخذت قلبي معها إلى أحضان القبر. ودمعي لا يزال يولّول على وجنتيّ بصمت يندب مليكة

قلبي إستير. إستير، تلك الحكيمة من غير وعي. إستير التي هي أم ولدي (يوسف). ولدي هذا الذي يغفو الآن على ظهري. رأسه على كتفي، وأنفاسه الحارّة تبعث الدفء في كياني. هو مبتلّ مثلي بماء المطر الذي لا يرحم. وقد أثقل كاهلي، بالإضافة إلى المسمار الذي يلج في لحم قدمي ويخرج من موضع واحد.

ها أنذا، الآن، كالابن العاق المسربل بالندم، أغادر بيتي الخرب عائداً إلى كنف دار أبي. أعود لأركع وأذرف دمع التوبة أمام عتبة بيتنا الرافل بالطمأنينة والأمن والمحبة. وألثم يد والدي بشوق ووجد، وأقبّل وجنتيّ أمي بحرقة ولهفة، وأمرّغ قبلات أخي بنيامين بدمعي. (اللهم ..... غفرانك).

ودعّتُ إستير في القبر المروي بعبراتي المراقة، يومياً، في تلك القرية التي أمسى فيها باب بيتي موصداً إلى الأبد. ولكن اسمها لازال يرنّ في خاطري، وحبّها يجيش في نخاع روحي، ونسلها غافٍ على ظهري الكليل. ولكن شاهد قبرها (ويا للوعة) قد لا يكون له زائر بعد اليوم. كيف سأُبرّر موقفي أمام أبيها اسحق؟. وكيف سأذرف دمع الندم بين يديّ أمها سارة؟. كيف سأنكر مصرع أخيها يوليوس؟. وماذا بوسعي أن أفعل لأستطيع ردَّ جميل هذين الوالدين الموسرين الشهمين؟. (ليته لم يكن لي وجود في هذا الكون قبل مولدي). تمتمت بيني و بين نفسي بهذه العبارة بصوت خافت.

ها قد بدأ الليل يهبط علينا. ولملمت الشمس أطراف ثوبها عائدة إلى أحضان البحر بعد انتهاء خدمتها ووورديتها النهارية. وقد شارفتُ بدوري على الوصول إلى تخوم قرية يتصاعد دخان مدافئها، ومواقدها، وتنانيرها بهدوء

إلى السماء ليمتزج برهبة بغيوم بيضاء كندف الثلج. ولكني واثق بأنها ليست القرية التي تضم بين ثناياها بيتنا الرافل بالفرح، والواقف بكبرياء يرنو إلى شروق الشمس.

لقد توغلت في دهليز مظلم من الأفكار والهواجس والخواطر نظراً لما اقترفته من الجرائر والذنوب فيما سبق. وقلت، آنذاك، مخاطباً ذاتي: كم سيكون رحيماً وعطوفاً ذلك الإنسان الذي سيستقبلنا ضيوفاً غير مدعوين في منزله. مسافرون أضناهم الجوع والترحال (هذا الذي خطر لي) لأن المسافة التي قطعتها سيراً على قدميّ خلال اثنتي عشرة ساعة، وذلك قبل انبلاج الفجر. إضافة إلى ثقل ولدي يوسف، وعناء الجوع و فحيح الزمهرير، وألم قدمي من جراء ما يسبّبه مسمار نعلي (كل ذلك جعلني أكفر وألعن وجودي). ولكن الذي جعلني أكثر إحساساً بذنوبي وآثامي هو ولدي الذي بدأ يشكو الجوع. وأنا، بدوري، أشكو الجوع والتعب معاً.

– قليلاً وسوف نصل. قلتها، وأنا أكذب على ولدي رفيق رحلتي.

انعطفت باتجاه منزل منعزل على طرف قرية متناثرة المنازل بغير انتظام. تزينها أشجار جمَّة باسقة، وتزدان بالعديد من الجداول والغدران الزاخرة بالمياه الجارية. بالإضافة إلى أكوام التبن المطلية بالطين، وكلاب هائجة مرعبة الهيئة، تنبح رافضة استقبال الضيوف، فقراء كانوا أم أثرياء وبدون استثناء.

كان هناك، أيضا، حصان موثق بحلقة إلى الحائط يمعن النظر فينا برأفة وحنان، وعلى سيمائه دلائل الشبع من كومة الفصّة الملقاة في معلفه بينما

نحن أشد جوعاً من الكلاب التي كانت تشتمنا بنباحها طالبة إلينا مغادرة تلك القرية على الفور.

كان صاحب ذلك المنزل ذي السقف المقوّس شيخ طاعن في السن. وقد خرج يعارك الكلاب بعصاه. وقد استطاع مطاردتها بعيداً في ذات الوقت الذي كنتُ ويوسف واقفين بانتظار عودته ليستقبلنا على الرحب والسعة.

- من أين أنتم قادمون؟ سأل العجوز وهو يكحّ.
- من قرية خابورية. أجبت بصوت وديع.
- خابورية ؟. آ... إنها في غاية البعد بالنسبة لمن يقصدها مشياً على الأقدام. قال العجوز المحدودب الظهر بينما هو يفتح الباب ويدعونا، بإشارة من يده للدخول، وبدون أن ننبس بحرف أطعناه وعبرنا بوابة المنزل إلى الداخل في حين كان يوسف يلحّ بإصرار أن نأخذ ذلك الحصان لأنه قد تولّع به كأنه كان ملكلنا من قبل.

كرعت جامين من النبيذ الأحمر الذي جادت به يد الشيخ الرحيمة. يد ذلك الشيخ الغارق في محبة أمته. وقد تجرّعتها بلذة ونشوة حيث بعثت الدفء في أوصالي، وأراحت، قليلاً، فكري المجهد، ثم أومأتُ لولدي يوسف الذي عبّ منها رشفة فلعبت برأسه على التو وبدأ يغني لنا ولنفسه وهو يلاعب ويداعب (هيوي) حفيدة ذلك الشيخ التي شغف بها حباً لأول وهلة.

بعد أن تناولنا الطعام على المائدة الطافحة بالكرم والجود في ذلك البيت الهادئ المضياف، عمدنا إلى تنشيف وتجفيف ملابسنا على نار الموقد. وبعدها سألنا ذلك العجوز الجذلان بضيافتنا عن الجهة التي نقصدها.

- إلى ديلامّا. أجبت بلطف.

هز رأسه، بينما ثغره يفترُّ عن شبه ابتسامة وقال: أمامكم مسيرة يومين. وستمرون، في طريقكم، بثلاث قرى قبل الوصول إلى ديلامّا. في أول قرية من القرى الثلاث تقطن أختي فانزلوا في ضيافتها. اسمها (صونا).

بعد أن قدمت نفسي وعرفّته بأني ابن داود من مواليد قرية ديلامّا، وكنت أسكن في خابورية منذ ثمانية عشر عاماً وستة أشهر. ألحَّ عليَّ، راجياً أن لا أُسيء فهمه ويثير غضبي، إذا سألني عن السبب الذي دعاني إلى مفارقة أهلي وعدم مشاركتهم السكن في مسقط رأسي.

- لا يحق لي أن أغضب. أجبته. وأردفت قائلاً : لأني مذنب في حياتي. وذنبي سأنشره على الملأ، وأدعه عظة لكل الناس ليكون عبرة لأولئك الذين لم يقترفوا إثماً بعد، ولكنهم قد يقترفونه يوماً، ولو أني كنت على ثقة مطلقة بأن هذا الشيخ الجليل من المحال أن ينحرف عن المسار الصحيح، والصراط المستقيم وهو في هذا العمر الوقور، وبما لهو من تجارب لا تحصى في الحياة.

الفصل الثاني

وهكذا بدأت، بدون أن يساورني أدنى إحساس بالحياء، أروي قصتي للشيخ وذلك بحضور زوجته تلك العجوز الحبيبة، بالإضافة إلى حفيدتها (هيوي) وولدي يوسف الذي سيعلم الآن (إذا كان يدرك) الدور الخبيث الذي لعبته على مسرح الحياة. وبينما أنا منهمك في سرد القصة كانت، هناك، قطة تشخر في حضن هيوي.

في عام (1862) وعمري لا يناهز الثامنة (كعمر ولدي يوسف الآن). ككل الآباء الواعين والغيورين على مصلحة أبنائهم، أرسلني والدي إلى إحدى المدارس التابعة للكنيسة كي أحصل على قسط من العلوم الدينية والدنيوية. وكأي طفل لبيب ومجتهد كنت شغوفاً ومولعاً بالعلم. إذ تمكنت خلال ثلاثة أعوام أن أستوعب كل تعاليم معلمنا (بطرس إيليا). ثم أُوفدت، بعدها، لمتابعة دراستي في مدرسة عليا وذلك بمؤازرة السيد (اسحق) مالك قرية ديلامّا والذي كان والدي يعمل لديه بصفة محاسب لمحاصيله الزراعية، ووكيل نزيه ومخلص لأعماله، والذي ربما لازال يمارس عمله ذاك بكل همة وصدق (إذا كان لم يزل على قيد الحياة).

كان أخي بنيامين أكبر مني سناً. ولكني كنت متفوقاً عليه في الدراسة. لذا كان يحسدني لأنه كان مصاباً بداء الأنانية، ذلك المرض الخبيث الذي يقف عقبة كأداة في طريق نجاح وتقدم أي إنسان.

بعد ست سنوات من مواظبتي على الدرس والتحصيل، وتفوقي المستمر، وقعتُ، على حين غرّة، في شباك ما يسمى الحب، أسير جمال إستير ابنة سيدنا ومولانا إسحق.

لم تكن عبادتي لجمال إستير من وحي تعاليم أساتذتي الأبرار، ولكنها كانت نتيجة القوة السحرية الكامنة في عينيها، أضف إلى ذلك أحاديث الهوى والغرام وقبلات البراءة التي كنا نتبادلها. كل ذلك جعلنا نسرف في الغيّ وننفر من الدراسة، ونمقت العلم، ولا نضع في الحسبان ما يتقوّله الناس علينا. منذ ذلك اليوم أصبح كلانا ينحدر من علياء العلم والفضيلة رويداً رويدا. وصرنا مثار اتهام. ثم ما لبث أمرنا أن افتضح، أخيراً، في كل أرجاء القرية. فمُنعت إستير، إثر ذلك، من متابعة دراستها، وصرت، بدوري، عدواً لدوداً لأبي وأمي وأخي. وكرهت الحياة، وطفح قلبي بالحقد على تلك القرية وكل هذا العالم.

أحياناً كثيرة كانت تحرّضني روحي الشريرة على قتل والدي لأنه كان يسدي لي النصح الذي كنت أشتمُّ منه رائحة التوبيخ والتأنيب. فقد كان يتحسّر بمرارة لضياع مستقبلي. ولربما كان، أخيراً، يمقتني حتى الموت وذلك لأني في أحد الأيام وأنا (كعادتي اليومية) جالس في غرفتي كئيباً، وسمّ الموت يقطر من وجهي، أتصفح كتاباً ضخماً يبحث في الأخلاق وآداب السلوك، بينما فكري شارد حيث إستير. فتحت أمي الباب ودخلت، تُقَدم رِجلاً وتؤخر أُخرى، وهي تتهيب وَجَلاً، ووجهها يموء وينمُّ عن الخوف. وما أن وقفت بجانبي حتى انخرطت في بكاء مرير يقطع نياط القلوب (بينما قلبي كالصخر

الصلد). بدأت ترجو تتوسل إليَّ أن أقطع علاقتي بإستير لأني لازلت صغير السن، إضافة إلى أنها ابنة أغنياء ونحن أناس فقراء، وبأمس الحاجة إلى أشياء كثيرة أهم وأولى من ذلك، كما أنه ليس لنا أي شأن يذكر لأن بصمات الفقر والإملاق قد دمغت جباهنا، ووجهاء وأشراف القوم لا يكلفون أنفسهم عناء الاهتمام والتفكير بنا. أضف إلى ذلك كله أن لي أخاً أكبر مني ولازال يتابع دراسته ولم يفكر بالزواج بعد، وما إلى ذلك من النصائح والإرشادات والتوجيهات التي ليس لها أول ولا آخر. وأنا جالس أُحملق فيها كالنمر الشرس المفترس. صوتها المسموم ينفذ من أذنيّ، ويتوغل إلى أعماق قلبي، وكلماتها تلسع وجهي كأنها الجمر المتقد. وعيناي تنظران شذراً إلى الدموع المنهمرة على خديها، وإلى شعرها الأشعث المكلل بالشيب. كل ذلك جعلني أتصوّرها ملاك الموت منتصباً فوق رأسي يحاول نزع روحي. فنهضت، واقفاً، أزعق وأُزمجر موجهاً إليها الكثير من الكلمات البذيئة، وناعتاً إياها بشتى الصفات القبيحة التي لا يليق ذكرها هنا. ولكنها دنت مني أكثر فأكثر وهي باسطة ذراعيها المرتعشتين، وأمسكت بكتفي وغمرتني بقبلاتها التي تعبر عن كل ما يكنّه قلب الأم من حب وحنان، ودمعها يبلل خدي. ولكني كهمجي مجنون رفعت ذلك الكتاب الضخم الذي كنت أُطالع فيه وضربته، بكل ما أوتيت من قوة، على رأسها. فجحظت عيناها، وداخت ثم وقعت على الأرض كجثة هامدة مغشياً عليها. ثم ما لبث الكتاب أن انسلّ من بين أصابعي، ووقع على الأرض مفتوحاً تتراءى بين سطوره أقوال الحكمة أمام ناظري، ولكن لم يكن بمقدور عينيَّ أن تبصرها أو تعيها لأن غشاوة من

اللاوعي، وفقدان الإحساس والشعور كانت تخيّم عليها، كما أن قلبي الأعمى لم يرحم أمي المغمى عليها من جرّاء فعلتي الشنعاء، وما جنته يداي الآثمتان وعقلي الأحمق (لعنة الله عليَّ).

دخل والدي مسرعاً وهو يصرخ ويهدّد، بعد أن صاح باسمي عدّة مرات في الخارج ينذرني، بأن أكون مهذباً وأتحلى بالأخلاق الحسنة. ولما وقع بصره على والدتي اصطبغ وجهه بحمرة الغضب، وقدحت عيناه شرراً. وبسرعة، وبقوة هائلة انهال بصفعة على وجهي دون أن يتفوه بكلمة. وبينما أنا، في كل حين، كنت أحاول التذرع بأبسط حجة لأنفّس عن كربتي. ووجدتها فرصة سانحة، فرفعت قبضة يدي اليمنى وضربتها، بكل ما أوتيت من عنفوان الشباب، على فمه. فتقهقر، على إثرها، مترنّحاً وارتطم بالطاولة وأوقع محبرتي على الأرض. ووقف بعيداً عني مدهوشاً ومرتعباً والدم ينزف من فمه، وعيناه طافحتان بدموع الكمد والغضب الناري، ولكنه تكتّف عاجزاً عن الإتيان بأي شيء لأنه غير قادر على مقارعتي بسبب كبر سنه وشيخوخته. وعندما رأيته شاحب الوجه، والدم يسيل بهدوء من شفتيه المرتعشتين شبّهته بقائد مغلوب على أمره على يد عدو قوي شرس لا يعرف الرحمة. وفي غمرة هيجان غضبي كرهته جداً. نسيت، في تلك اللحظة، حبّه الأبوي، وسعيه الدؤوب من أجل تربيتي وتأمين مستقبلي. فأمسكته من كتفه ودفعته خارجاً، بعنف، كأنه خادمي غير المطيع بينما أنا ولده ومن دمه وصلبه، وعلى شبه صورته. وأخرجته بأسلوب قذر ومشين لا أتمكن من تصويره كتابة (لقد كنت بحق مجرماً وأثيماً).

استفاقت أمي من إغمائها كما لو كانت في حلم، ولكن الرعب خيمَّ على وجهها، وصارت ترتعد هلعاً عندما نهضت ووقع بصرها عليَّ. فخرجت تهرول مخافة أن أهين كرامتها ثانية بتصرفي الأهوج، لأنها علمتني (الآن) بأن الكرامة هي أسمى من كل جاه و ثروة، والشرف أغلى من كنوز الأرض (وأنا أفتقر لكليهما معا).

كبربري يستند انتصاره على الباطل المدعوم بالقوة أصبحتُ وحيداً في غرفتي أرتعد من الغضب. وأوصدت الباب خلفي وصرت سجين عدم إدراكي، بيد ذاتي، إلى أن يتبدّد ظلام ضعفي. وهكذا، كلما كانت الأيام تجترّ بعضها بعضا، كلما كانت حياة بؤسي واكتئابي تطول وتمتد أكثر فأكثر، وحقدي على أهلي ينمو باضطراد. لم استطع النظر إلى الوجه المشرق من أفكاري ومشاعري، ولكني أمعنت النظر فقط في وجه غضبي القائم على الجهل والحماقة والباطل.

أمضيت ليالٍ طويلة غارقاً في بحر الأحزان، وأنا أعيش على أمل لقاء إستير (مليكة ظنوني وتصوراتي). ليالٍ باردة ومريرة قضيتها حتى بزوغ الفجر أسترقّ النظر إلى نوافذ القصر، ولكني لم أحظ بمشاهدة إستير لأنها كانت أسيرة في إحدى غرف القصر المنيف على يد أخيها (يوليوس) الظالم الذي يبغضني بشدة، ولكنه كان يخافني كما تخاف هرة من كلب هائج (ولكنه كان أعجز من أن يخدش وجهي بأظافره).

أحياناً كثيرة، وبينما أنا سادر في انتظاري الطويل المضني من أجل لقاء إستير، كان دمي يغلي في عروقي، ويسلق قلبي. وأحياناً أخرى، وأنا جالس

على العشب الندي في حديقة القصر، كانت يدٌ خفية تزيح ستار النافذة فأقفز، على الفور، واقفاً بينما قلبي يثب بدوره إلى حنجرتي مبتهجاً (وكلي ثقة بأنها إستير) ولكن يوليوس كان يمدُّ رأسه، كجندي جبان، خارج النافذة يبحث بعينيه عن عاشق أخته السجينة. وبسرعة، وبدون أن يلاحظ شيئاً، كان يسحب رأسه إلى الداخل (كالسلحفاة) ويتركني أمضغ شفتي، والنار تتصاعد من وجنتي، وكنت أتمنى، آنذاك، لو أنه يقع في قبضتي لكنت أهرسه وألوك رقبته بأسناني (حتى لو أثار ذلك غضب إستير).

كانت إحدى خادمات مولانا المحترم اسحق نسيبة والدي. وقد استطعت، ذات مرة، أن أكسب ودّها وأبعث الشفقة والرأفة في قلبها وذلك بتوسلاتي ورجائي الحار كي تُبَلغ سلامي واشتياقي وحبي إلى إستير وتخبرها بأني سجين مثلها، ولكني سجين متجول وقلبي هائم. ولثمت يدها راجياً أن تقول لإستير بأني راضٍ أن أموت مطمئناً إذا حظيت منها بنظرة. وسررتُ كثيراً عندما لاحظت عينيها مغرورقتين بدموع العزاء والرأفة. وتأكدت، حينذاك، بأن إستير ستتبلغ تحياتي حتماً.

في المرة الثانية والأخيرة التي تبلّغتُ كلمات الحب، وتحيات الشوق والحنين من السجينة (جميلتي) بواسطة (ليَّا) قريبة والدي، لمحَنَا يوليوس (ملك المظالم) بينما كنتُ أُحمّلها أمانة تبليغ جوابي المفرح إلى مليكة قلبي. ومنذ ذلك اليوم لم أتمكن من رؤية (ليَّا) ثانية.

في إحدى الليالي المظلمة من يوم الأحد. وضَعتُ حداً لانتظاري بدون أمل، وقمتُ بسَنِّ حدّ سكيني التي اشتريتها بثمن كتاب سبق وبعته من أجل وضع

نهاية لحياة يوليوس. وخرجت من البيت، في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وكان الهواء أكثر برودة من الثلج، وأشبه بحدِ الموسى. كما كان الندى يتجمّد فور وصوله إلى الأرض، لأن الأرض كانت مكللة بالبياض.

خرجت من البيت وأنا أقسم أمام نفسي قائلاً: (حتى لو كان ثمن لقاء إستير حياتي فينبغي أن ألقاها، وإذا تمكنت من قتل يوليوس سأموت هانئاً مطمئن البال، وسأحسب نفسي من الصالحين. وهكذا، كنت أحثّ الخطى كأن الأشباح تطاردني لا لأن قصر إستير كان بعيداً عن دارنا، لكن لأصل باكراً، وأنفّذ ما خطَّطه وصمَّمه عقلي).

الفصل الثالث

كان قصر مولانا اسحق مشيّداً فوق إحدى الروابي، ومؤلفاً من طابقين يحتويان على غرف وحجرات كثيرة. تحيط به جنائن الزهر من جميع الجهات، بالإضافة إلى الأشجار الباسقة وهي تقف بخيلاء تتأمل بيوت الناس الذين يعيشون تحت سلطة صاحبها العادلة والرحيمة. حيث كانت جميع تلك البيوت مبنية بأشكال وأحجام وأشكال مختلفة أسفل القصر من الجهات الثلاث المحيطة بالرابية التي كانت تنحدر رويداً رويدا لتتساوى، أخيراً، مع سطح الأرض.

خلف تلك المنازل كانت تمتد حدائق وبساتين وكروم القرية الطافحة بالخصب والبركة. وفي نهاية تلك الحقول كانت تنتصب الجبال الشاهقة ذات الصخور الصماء من عهود موغلة في القدم. أما المياه فقد كانت تنفجر من الينابيع التي كانت تفيض بها قمم تلك الجبال الشامخة التي تكتسحها رياح الجهات الأربع، وتسنُّ هاماتها على امتداد فصول السنة. وقد كان لأهل القرية اكتفاء ذاتي في كل شيء، ما عدا الأقمشة التي كانوا يحصلون عليها عن طريق بعض اليهود بالمقايضة بالسمن والصوف وبعض المحاصيل الزراعية. واليهود، كما هو معروف، في أي زمان ومكان يتمايزون عن جميع سكان

العالم لأنهم يحبون التقوقع والعزلة. ويمارسون أنواع المهن والحرف التي يجهلها غيرهم. ويخفون جميع أسرارهم بين ظهرانيهم لأن الآصرة القومية بينهم متينة جداً. وهم، بالإضافة إلى ذلك، أنانيون لايحبون الخير لأحد، ولا يقدمون يد العون والمساعدة لأي شعب كان سوى الشعب اليهودي، وإن فعلوا ذلك فلغاية في نفس يعقوب. لذلك فإننا نلاحظ على الدوام بأن سلسة اتحادهم وإخلاصهم المتفاني لبعضهم بعضا ممتدة إلى جميع زوايا الأرض. وهم يحققون أي شيء يرومونه بصمت وروية وحكمة، إضافة إلى أن العاطفة لا تعرف سبيلاً إلى قلوبهم.

كانت تضم قريتنا بين ثناياها ستة آلاف بيت. وكانت تلك الأرض بمجملها، ملكاً خاصاً لمولانا الموقر اسحق حيث أنه ورثها شرعاً عن أجداده وأبيه. كما كان يوجد في القرية مدرستان كبيرتان، ومشفى واحد تبرع بتشييدها جميعا من فيض خيراته. ولكنه لم يعمد، قط، إلى بناء كنيسة وذلك عملاً بوصية والده لأن قريتنا وإن كان جميع سكانها من الآشوريين إلا أن التعاون كان معدوماً بينهم، كما أن المحبة كانت فاترة بسبب رياح التفرقة التي كان ينفثها رجال الدين حيث كان فيها عدة كنائس تمثل مذاهب متباينة ولكن جميعها حقيرة البناء، كئيبة، وتعشعش فيها عناكب الفقر في جنباتها على الدوام.

بذل السيد اسحق جلَّ مساعيه الحميدة خلال سنوات عديدة، على منوال أبيه، ليوحّد جميع كنائس قريته، لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح. لذلك لم يكن يتدخل بعد ذلك، مطلقا، في شؤون أية كنيسة، ولا يزور أية واحدة منها.

كان يحثُّ، أحياناً كثيرة، الصفوة المختارة من رجال القرية ليتحدوا فيما بينهم، ويؤسسوا شركة تجارية تقوم بالتعامل مع الخارج لكن مساعيه الحميدة تلك أيضاً قد باءت بالفشل، كما مُنيت محاولات تلك الصفوة المختارة بالخيبة نظراً لأن أواصر وحدتهم وتماسكهم كانت واهية تقوم على أساس هش ينخر فيه سوس الأنانية، والتفرقة المذهبية والقبلية. لذلك يئس كلياً، ولكنه كان يتحسّر دائماً بمرارة من أجلهم لأن حنطتهم مختلطة بالزؤان الذي عجز عن إيجاد حلّ لاستئصاله، فاتكل أخيراً على الله وعلى رياح التطور والتغيير.

على هذه الحال كانت تعيش قريتنا التي تدعى (ديلامّا) ومنها انطلقتُ تلك الليلة المدلهمة القارصة أحثّ الخطى مسرعاً حتى وصلت إلى قصر استير الثرية. ودغدغ قلبي الأمل حين لمحت الضوء ينبجس من إحدى النوافذ. فاعتقدت، على التوّ، بأن استير لابد ساهرة هناك لم تنم بعد.

بعد أن طفتُ حوالي القصر عدة مرات، فشلت في العثور على أية ثغرة أنفذ منها إلى الداخل. فوقفت، حينذاك، حائراً مشدوهاً كالأبله أحدث نفسي، وأرتجف من البرد. قلبي كئيب تسلقه نار الحسرة واللوعة، ولكنني كنت عاجزاً، في تلك اللحظة، عن البكاء أو الضحك من وعلى وضعي المزري الذي لا أحسد عليه. وأخيراً، وبينما أنا أنظر إلى الأعلى متأملاً نافذة نور حبي وقع بصري على قسطل يسيل منه ماء المطر من السطح (عندما كانت تمطر السماء). ومن دون تلكؤ أو انتظار وضعت سكيني في فمي ممسكاً إياها بأسناني. واحتضنت ذلك القسطل بعد أن خلعت حذائي وبدأت أصعد عليه. ولكنني كثيراً ما كنت أنزلق لأعيد المحاولة إثر الأخرى فيما يداي

تتجمدان بفعل الندى المتجلد على ذلك الأنبوب. وتمكنت أخيراً، قبل أن ينفطر قلبي، من الوصول إلى تلك النافذة المضيئة ولكنني لم أنجح في محاولة فتحها. فصعدت على السطح المقبب وقلبي يخفق بين جوانحي كطائر ذبيح. وتلمست أنبوباً من القرميد عرفت بأنه المدخنة فألقيت بنفسي من داخلها فوقعت في الرماد المختلط بالجمر، وقفزت منه فوراً لأنني أحسست بأن جواربي قد احترقت.

عندما وقع نظري على استير وهي غافية. وثب قلبي إلى حنجرتي وهممت بأن أروي غليلي من شهد قبلاتها ولكني كدتُ أقع مغشياً عليّ حين لمحت صورتي في المرآة القائمة بمواجهتي. ولم أصدق بأنني أنا لحماً ودماً إنما ظننت بأن شيطاناً أخرق يقف أمامي، لأن وجهي كان مسودّاً من أثر الدخان المتكدّس على حوافي المدخنة.عيناي فقط كانتا تلمعان كعيني قطة في الظلام. وأخيراً ضحكتُ على صورتي الشيطانية.

كانت تلك الغرفة (سجن استير) فسيحة تزينها السجاجيد، والصور، وغير ذلك من أدوات الزينة. وكان سريرها منصوباً في إحدى الزوايا إلى جانبه طاولة عليها طعام لم يذقه إنسان بعد، إضافة إلى كتابين وورقة زرقاء منقوشة بكتابة يد. ولكن حين قرأت محتواها لم يكن يتضمن أي معنى لأن وجهي الورقة كليهما كانتا تزخران باسمي (إيشاي). ما يربو عن ألف إيشاي كان مدوناً فيها.

سكبت قليلاً من الماء على أحد فساتينها ونظفت به وجهي، ثم مشطت شعري على عجل، ووقفت فوق رأسها أتأمل جمالها وبهاءها بدهشة واستغراب.

تملكتني رعشة غريبة، وسرت في جسدي قشعريرة لم أدرك كنهها بينما كان قلبي يبكي ويضحك كمجنون في العيد.

سرقت قبلة من زاوية فمها، وذرفت عيني دمعة سخية على جبينها من شدة فرحي وابتهاجي ولكن عزّ عليّ إيقاظها. ثم وشوشت باسمها، بعد لأي، في أذنها. ولما تمرَّغ أنفي في شعرها اضطرمت وولولت روحي في جسدي.

بدأت تتحرك قليلاً وتتمطى في فراشها، ثم تقلبت إلى الجهة اليمنى موليّة إليّ ظهرها. فوضعت، آنذاك، يدي على كتفها الأيسر. لقد كان لدناً ناعما بحيث صعدت منه شحنة كهربائية عبر يدي وانتشرت في كل أجزاء جسمي وخدّرت عقلي. وبينما يدي ملتصقة بجلدها هززت كتفها قليلاً في حين كان فمي وحنجرتي ناشفين كالكبريت. فوثبتْ مندهشة، وجلست على فراشها وعيناها لا تصدقان ما تريان. وفتحت فمها لتصرخ لكنني عمدتُ إلى إسكاتها براحة يدي على الفور.

– كيف دخلت إلى هنا يا إيشاي؟. سألت وهي تبلع ريقها بصعوبة.

فرويت لها، بهدوء، كيف نزلت من المدخنة، وأريتها فستانها الملوّث بالسواد. ولكن عينيها كانتا تتجولان في وجهي كأنهما تبحثان عن شيء فقدتاه فيه منذ أمد طويل بينما يداها تشدان على يدي مخافة أن تذوب من بينهما كالبخار. وتكلمت أخيراً قائلة: لا أصدق بأنك أنت. وأدخلت يدها اليمنى في ثنايا شعري في حين كانت يدي تستقر بلطف على نهدها، وتستمع إلى نبضات قلبها.

نسيت في غمرة انشراحي أين أنا فتكلمت بصوت مسموع قائلاً: أنا هو بلحمي ودمي وليست روحي.

- ماذا سنفعل؟. سألت وهي تضغط على يدي وشعري بقوة.
- سنهرب. أجبت، وأنا أضغط بتأن على نهدها، وبقوة على الكلمة.
- إلى أين؟. سألت وهي تهز رأسها وعيناها مشدوهتان.
- سنذهب إلى (خابورية) فهنالك لي صديق وفي. أجبت وأنا أسحبها من الفراش.

بقيت تفكر وتخاطب نفسها: خابورية!... خابورية! ... وأخيراً قالت : آ...آ... أجل!.. أجل!... سنذهب.

جمعنا، بسرعة، ما استطعنا جمعه من ثيابها، وكدّسناها في إحدى حقائبها (بدون نظام ولا ترتيب)، وأخرجتْ من أحد أدراج خزانتها رزمة سميكة من الأوراق النقدية، وقلماً ذهبيا ثم جلست تكتب بيد مرتعشة على ورقة، وتلفظ كل كلمة على النحو التالي:

أخي العزيز يوليوس!

لابد أنه سيكون هذا حديثي الأخير إليك، لأنك ظالم فظ القلب. مع أني أعترف بأنك شهم وشريف. وها قد انفتح الآن باب سجني على مصراعيه بتلك اليد التي ستنقلني إلى موطن حريتي وأنا على ثقة بأن الله سيغفر لي لأني أفرُّ هرباً من سطوتك وسألحق بإيشاي. إيشاي الذي هو إلهي بينما أنت أخي. أوصيك بأن تقضم وجنتي أمي نيابة عني. ستخطئون، حتماً، إذا حقدتم عليَّ ظانين وواهمين بأني قد فقدت شرفي وألحقت بكم العار والشنار. لا.

فشرفي لازال حياً معي ويجري في دمي. أرجو أن لا تخبر أبي حتى يعلم الحقيقة بنفسه. وليرفل هذا البيت بالأمن والسلام... ووداعاً.

محبتك وخادمتك أختك استير.

وبعد أن انتهت من كتابة الرسالة أمسكتها بيدها اليسرى، وشرعت تتلوها على مسامعي بصوت مرتعش بينما كانت تمسك القلم الذهبي بيدها اليمنى وهي ترصّ به على شفتها السفلى. ثم ما لبثت أن وضعته على ذلك الكتاب الضخم الذي كان بعنوان (أعمدة الحكمة السبعة).

في ذات الوقت الذي كان فيه عقلنا يفكر بسرعة أمرتني أن أختبئ خلف باب الخزانة المفتوحة في حين طفقت تقرع الباب بقبضتي يديها وتنادي عالياً باسم بياتريس (إحدى وصيفاتها).

سمعتُ صوت المفتاح وهو يصرّ في القفل. ثم انفتح الباب لتدخل بياتريس مسرعة وهي تسأل، وتعابير الخوف بادية على محياها.

- ماذا تأمر سيدتي؟
- اجلسي هنا على هذا الكرسي. أمرتها استير.

فأطاعت بياتريس بدون جدل. ثم جلست مستقيمة كالقلم وهي مضطربة.

- سلمي هذه الرسالة، صباح غد، ليوليوس. قالت استير، وهي تشير بإصبعها إلى تلك الورقة الزرقاء. فأومأت بياتريس برأسها، بدون أن تنبس ببنت شفة، ثم رفعت عينيها لتتأمل وجه استير بحيرة ودهشة.

نادتني استير قائلة: إيشاي! هيا أوثق يدي بياتريس ورجليها، وشدّ وثاقها إلى الكرسي، ولا تنسَ أن تعصب عينيها.

عندما خرجت من وراء باب الخزانة ارتفعت عينا بياتريس فوق حاجبيها من الرعب، وفتحت فمها لتصرخ، ولكني في أقل من لمحة بصر كممت فمها بمنديلي. وقبل أن أعقده خلف رأسها أغمي عليها، وسقط رأسها على كتفها الأيسر، وتناثر شعرها الأسود كالشفق بعد الغروب.

ضغطت اسيتر بيدها اليسرى على يدي اليمنى وقالت: أسرع. فحملت حقيبة ثيابها، وخرجنا من غرفتها إلى ذلك الرواق الطويل بينما عمدت هي إلى إغلاق الباب، وتناولت سلسلة المفاتيح واتجهت إلى اليمين وأنا أتبعها وأتأمل شعرها المتناثر على كتفيها وهو يتراقص على خاصرتيها. أما قامتها الهيفاء، وتبخترها وهي تخطر في ثياب النوم جعلني أتمثلها إلهة الليالي الغرامية.

فتحت استير الباب إثر الباب بخوف وحذر شديدين. وأوصدت كل واحد منها من الخارج بينما أنا أنفّذ، فقط، ما تمليه عليّ من الأوامر بين الحين والآخر بإشارات من يدها. كان وجهها يصطبغ بشحوب الخوف، والعرق ينضح من جبينها، وحاجباها مقطبان. وأخيراً، وعندما كنا نوصد بوابة القصر معاً ارتعب كلانا لأنها بعثت صريراً تقشعر له الأبدان. ثم هبطنا، بعد ذلك، المدرجات الصغيرة لأن ذلك القصر كان أعلى من مستوى سطح الأرض كما أسلفنا سابقاً. ولمحت حذائي فهرولت نحوه أريد انتعاله ولكنه كان مبتلاً بالندى، ولكني رغم ذلك انتعلته بسرعة بينما كانت استير واقفة بجانبي، ثم وضعت يدها على كتفي وتنهدت قائلة:

- إيشاي! لقد كنت، حتى هذه الساعة، أسيرة هذا المنزل، ولكن الآن قد أصبح جميع أهله سجناء فيه. ترى كيف سيتمكنون من الخروج؟

عندما كانت تتحدث إليّ كانت أنفاسها تلفح وجهي بينما صوتها يرتعش من الخوف والفرح.

لم استطع حينذاك العثور على أي كلام أقوله فعوضت عن ذلك بأن ضممت وجهها بيدي، وأدنيت رأسها قرب وجهي، ومرّغت جبيني بجبينها وقلت:

- استير! ها قد أصبح الآن موتي حلالا، وسأموت مطمئن البال.

فانطلقت من حنجرتها ضحكة رنّانة أثلجت صدري وقلبي.

وبينما كنت أمعن النظر إلى تلك البوابة الكبيرة الموصدة من الخارج، وكلي حزن وأسى لأجل أولئك القاطنين خلفها، والغارقين في نوم هانئ. أدركتْ استير، على الفور، الأمر الذي كان يشغل تفكيري وذلك حين نظرت إلى وجهي، ثم ما لبثت أن انطلقت فجأة وهي تسحبني خلفها حتى وصلنا إلى البوابة. فعمدت، آنذاك، إلى فتحها ثم تركناها مفتوحة قليلاً وعلقنا سلسلة المفاتيح على مقبض البوابة بحلقة المفتاح الكبير.

وضعت سكيني في غمدها المعلق بحزامي من الجهة اليسرى، وحملت حقيبة استير بيدي اليمنى، وأمسكتُ بيسراي يدها الباردة وشددتها قائلاً: إن تأخيرنا هنا لابد سيسبب لنا المتاعب، ويجرّ علينا وبال الندم (بينما نحن نستعجل لنخلق بأيدينا لأنفسنا المتاعب والآلام).

بدأ الليل يجر ذيوله، واصطبغ وجه الشفق بالبلجة، والهواء مبتل بالندى، والصمت يخيّم حولنا ولا يبدّده إلا صياح الديكة وهي تبشّر ببزوغ الفجر.

بينما نحن بعيدان عن القصر مسيرة نصف ساعة وكلانا صامت ونحن نحث الخطى مخافة أن يفرّ الطريق من أقدامنا، ويد استير تتنهد في يـــدي كقلـــب طعين، وعقولنا تفكر أسرع من خطواتنا تكلمت استير قائلة:

- إيشاي! لقد تجمّدت. كانت أسنانها تصطك من شدة البرد. فـــي تلـــك اللحظة بالذات استطاع عقلي أن يدرك أنها لم تكن ترتـــدي ســـوى غلالة النوم. فقلت:
- طبعاً ستتجمدين لأنكِ عارية.

وقفنا ثانية نجيل النظر إلى ذلك القصر الشامخ من فوق قمـــم الـــتلال التـــي نتمكن من فوقها رؤية كل منازل قريتنا التي لن نشاهدها ثانية، معاً، في حين كان عنكبوت الحزن يحيك خيوطه في زوايا قلوبنا الصغيرة.

الفصل الرابع

عندما انحدرنا من فوق تلك الرابية الخضراء وصلنا حيث صخرة كبيرة جداً تنتصب عالياً، وتمتد نحو الشمال بينما أسفلها مجوّف وأشبه بكهف. وبعد عدة التواءات تمكنا من الولوج تحتها حتى بلغنا أخيراً مكاناً مظلما فبدأت استير، آنذاك، ترتعد من أخمص قدميها حتى قمة رأسها من الخوف والبرد. فعمدت إلى إشعال نار من أوراق بعض الكتب الثمينة التي أخرجتها من حقيبة استير.

بعد أن تدفأنا قليلاً، وارتدت استير كل ملابسها الصوفية الدافئة بمساعدتي، خرجنا ممسكين بأيدي بعضنا. وبدأ واحدنا يشجع الآخر بكلمات معنوية تبعث على الجرأة والإقدام، بينما هي تتنهد بحسرة، بين الفينة والأخرى، لفراق أهلها والتخلي عن بحبوحة عيشها، وضياع مستقبلها، وأنا أؤكد لها بأن

الحرية أسمى من الصحة والثروة والرفاهية، والحب هو غذاء القلب والروح لأولئك الذين يعانون من ويلاته.

رغم ما كان بحوزتنا من المال الوفير، والشمس قد أفلت ونحن نمعن في السير، بدأنا نشعر بالجوع والتعب والنعاس، ونتضرع إلى الله أن يسعفنا في الوصول إلى مكان آهل بالسكان، لأن ما حولنا كان يكتظ بالحقول والجبال والغابات إضافة إلى أن الطريق التي كنا نسلكها لم تكن مخصّصة للمشاة وإنما للخيالة الذين كانوا يخاطرون بحياتهم، وحياة خيولهم حينما يغامرون بالسير عليها. ولكننا كنا في ذلك الحين، ورغم الجوع والخوف من الوحوش المفترسة، ومن المجرمين وقطاع الطرق، أشجع من الجياد والبغال. وكلما كان الوقت يمضي كنا نحث الخطى بلا هوادة. وكثيراً ما كنا نطلب إلى الله أن يلجم عنان النهار، ويوثق الشمس إلى جدار الأفق كما فعل من أجل يشوع بن نون. ولكن الوقت كان يمضي بسرعة الدم المتدفق في نياط قلوبنا.

في الساعة العاشرة من ليلة ذلك الاثنين، كانت الريح الشرقية عاتية تعوي كالذئاب، وتدفعنا بعنف وهي تلعب بأثوابنا، وتحاول نزعها من على أجسامنا، في حين كنا نسير بصعوبة بالغة مطأطيء الهامة، ونحن نلف أذرعنا على خاصرتي بعضنا. وتابعنا المسير، على هذه الحال، حتى وقفنا أخيراً أمام نافذة بيت صغير في إحدى القرى، يكاد يغمى علينا. وقفنا نصغي إلى صوت إنسان وجهه أحمر كالدم القاني، هائل الجثة، ذو شاربين أسودين في غاية الطول والكثافة. ملتف بزنار من المخمل من تحت ثدييه حتى أسفل بطنه، وهو جالس على كرسي مسنده عال ومستقيم، وأمامه طاولة معوجة القوائم،

وفي يده اليمنى جام من النحاس طافح بالخمرة، ويده اليسرى على أذنه وهو يبربر أو (يغني) هكذا:

عندما أنجبتني أمي
فصّلت لي قماطاً
هاي أمي... واي أمي... هاي أمي.
علمتني أمي الحرية
زوجتني، ثم (قلّعتني) من البيت
هاي أمي... واي أمي... هاي أمي.

- دعينا نجرب حظنا لدى هذا الإنسان (الحصان).

همست في أذن استير الباردة. فأومأت برأسها (يعني... نعم).

كان باب ذلك البيت ضيقاً ووطيئاً، ومصنوعاً من خشب سميك جداً. فقرعت بقبضتي ثلاث مرات في حين كان ذلك الرجل الجبار يهمّ بمتابعة غنائه ولكن طرقاتي على الباب ألجمت لسانه.

- تفضلوا!... من هناك؟. صاح بصوته الأجش. وعندما فتح الباب انسكب نور السراج علينا كالماء.

أحنيت رأسي مسلماً عليه وقلت:

- سيدي! نحن مسافران وليس لنا أي إلمام بهذه السبل ومؤداها. كما أننا غرباء عن هذه المنطقة عامة، ولا نعرف أي إنسان في هذه القرية خاصة. لهذا نتوسل إليك أن تقبلنا ضيوفاً في بيتك العامر هذا المساء، وإذا أحببت سندفع لك الثمن الذي ترتأيه. وأما إذا كنت من

أهل الخير فسنكون لك من الشاكرين كضيوفك أولاً، وكبني أمتك ثانياً. دسّ يده اليسرى تحت زناره العريض بينما كان يبرم باليمنى تلك الحزمة الكثيفة من الشعر تحت منخره، وبدأت عيناه المحمرتان كاللحم تتراقصان على وجهي، ووجه استير التي احتمت خلفي كأنها حمل وهذا العتريس ذئب جائع.

ألقى رأسه، فجأة، إلى الخلف وطفق يصهل كالحصان (يضحك). ووضع يده الثقيلة على كتفي وقال:

– هذا بيتكم. وأنا وزوجتي ضيوفكم.

فدخلنا وعيوننا تترصد الجدران، والسقف والأرض وكل الأشياء التي كان يحتويها ذلك البيت ذو الأرضية الأخفض من مستوى الأرض بدرجتين.

سحب كرسياً كبيراً وأجلسني عليه بقوة في حين بقيت استير واقفة لأنه لم يكن لها موضع للجلوس. وكنت أتمنى، من الأعماق، أن ترتاح هي. فنهضت واقفاً لأخلي لها مكاني. ولكنه أجلسني، ثانية، وتناول برميل خمر كبير وصبّ محتوياته في سطل، ووضع على البرميل حجراً من المرمر ثم وضع فوق ذلك الحجر جلد خروف وضرب عليه براحة يده بعنف وقال: تفضلي بالجلوس يا ذات الحسن والبهاء. سأكون في غاية السعادة وأنا أقدّم خدمة لهذا الوجه الصبوح الذي تملكينه. فاحمر وجه استير، لدى سماعها مثل هذا الكلام، وهي توزع النظرات بيني وبين ذلك المضيف السفيه. أما أنا فقد بدأت أمقته من جراء ثرثرته لأنه بدا لي، وقتها، كأنه يسخر منا ويستهزئ بنا.

فتح فمه الكبير وصاح منادياً باسم صوريّا.

كانت صوريّا زوجة هذا الذئب امرأة ربعة. مكورة الوجه وعيناها سوداوان كالقار، وشفتاها تفترّان عن ابتسامة ترحيب بنا ولكن عينيها مندهشتان وهي تمسح يديها بمئزر أزرق متّسخ.

- أشعلي منقل الفحم، ومدّي السفرة، بسرعة، لهذا الزوج الشاب.

رفعت صوريا رأسها، وخفضته عدة مرات وهي تفكر، وتعود القهقرى في ذلك الكهف ذي البوّابة الشبيهة بفوهة مغارة.

وضع مؤخرته على تلك الطاولة ذات القوائم الهزيلة وقال: اسمي گوليات... وأنا كريم جداً.

- يشرّفني ويسرني ذلك. أجبت، ثم أردفت: اسمي إيشاي.
- وهذه الجميلة، هل هي أختك؟. سأل وهو ينظر، بعين ملؤها الشهوة والشر، إلى استير التي كانت مطأطئة الرأس.
- عفواً. ليست أختي وإنما هي ابنة حميّ. أجبت وأنا أدفع بغضبي إلى أقصى زاوية في قلبي.
- إنك تخدعني يا شيطان. قال، وهو غير مصدق. وكان معه كل الحق في ذلك لأننا كنا صغيرين جداً على الزواج. ثم وضع جام الخمر تحت أنفي وقال:
- اشرب لتدفأ. وفي حين لم أكن قد ذقت الخمرة قط في حياتي، شربت حتى تقطعت أنفاسي.
- هنيئاً... هنيئاً يا (جدع). قال بانشراح، ثم قدّمها لاستير التي

اعتذرت وشكرته بامتنان. ولكني أجبرتها على شرب ما لا يزيد على نصف غلاف بيضة، أو مثل خمر التقديس.

أحضرت صوريا مقلاة تحتوي على ثماني بيضات تتعذب وتولول في هيجان السمن المغلي، ووضعت إلى جانبها بعض الرقاق، وصحناً من اللحم المقلي وآخر من المخلل، بالإضافة إلى سلة تفاح أحمر.

سرق گوليات تفاحة وبدأ يقضمها، ويعلكها كما لو كانت لباناً في فمه وقال:

- من يستحي فهو ابن شحاذين. كلوا حتى تطلب بطونكم النجدة.

أعترف صراحة بأن النبيذ الذي شربته جعلني آكل حتى التخمة. فمنذ عام (أي منذ اليوم الذي وقعت في حبائل استير) وأنا لا آكل أكثر من الكمية التي تستطيع حمامة أن تأكلها. ولكني هذا المساء، وفي هذا البيت الغريب أتخمت معدتي، ولربما حذت استير حذوي.

ولكن، وبينما نحن منهمكون في ازدراد الطعام كان صاحب البيت يفرغ في حلقه جاماً بعد آخر من ذلك النبيذ ويقول:

- نخب صحتكم وسعادتي. وقبل أن نرد عليه: هنيئاً، كان يمصّ ما تعلق من بقايا النبيذ على شاربيه بعد أن ينشف الجام ويرنّ على الطاولة.

وبينما نحن نشكر الله ونتقدم بمزيد الامتنان لصوريا. بدأ صاحبنا يقبل زوجته كأنه يؤدي دوراً في مسرحية درامية في حين كنا نغوص في ذواتنا حياء وخجلاً من جراء تصرفاته. وقد أصبح وجه صوريا أشد احمراراً من ذلك النبيذ. ثم تحوّل، بعد ذلك، إليّ وطفق يقبلني بشفتيه اللتين كانتا تغسلان

وجهي. فطلبت إليه أن يغني لنا أغنية (أمي... يا أمي). ولكنه لم يعرني اهتماماً بل عمد إلى إمساك استير من كتفيها وأطبق بفمه على شفتيها. فاسودّت الدنيا أمام ناظري وامتدت يدي، بغتة، إلى سكيني لأغرز نصلها في صميم قلبه. ولكن صوريا أدركتني وتعلقت بذراعي تتوسل وتموء وتبكي وهي تؤنب زوجها الفظّ.

عندما ولولت استير، وتمكنت من التملّص من بين قبضتيه الحديديتين وقف مشدوهاً يتأملها، ثم انخرط في البكاء وهو يعتذر إليها ويستغفرها راجياً أن لا تسيء الظن به لأن حبه همجي بالنسبة لمن يعزّه. (فتعجبت متسائلاً بيني وبين نفسي كيف لم يعمد من قبل إلى خنق صوريا في مثل هذه الحال؟). ثم ما لبث أن جلس على ذلك الكرسي وبسط ذراعيه على الطاولة التي كانت تئن تحت ثقله، وصار يلعن كل من يعكر صفو ضيوفه الغرباء. وبعد دقائق، ونحن لم نزل واقفين والدهشة قد عقدت ألسنتنا، بدأ يشخر كثور ذبح نصف ذبحة.

في ذلك الكوخ الصغير، وعلى ذلك الفراش البسيط، وتحت لحاف سميك احتضنت استير وتبادلنا قبلة تصبح على خير، ثم ما لبثنا أن غفونا كالأموات حتى الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم المشمس الدافئ.

حين التأم شملنا، ثانية، على مائدة الفطور كان السيد گوليات يغضّ الطرف، ويغوص في ذاته خجلاً، وكان يقوم بمهمة صبّ الشاي، من الإبريق الذي كان يغلي على النار، نيابة عن صوريا التي كانت تحذّره، بين الفينة والأخرى، قائلة: انتبه يا رجل، وامسك قطعة قماش بيدك، ستحترق. ولكن

كفّ جوليات الضخمة كانت تحرك الإبريق كما لو أنه ريشة بين أصابعه.
\انتهزت الفرصة، وقتذاك، لأساومه على حصان، ولكن استير سبقتني إلى الكلام بحديث عذب قائلة:

- إيشاي! صدقني يا عزيزي بأني لن استطيع السير مشياً أكثر من مسافة عشرة أقدام.

أجبت:

- لماذا تهتمين؟ طالما سيدنا گوليات سيبيع لنا، بالتأكيد، واحداً من أحصنته. ونحن بالطبع سندفع له السعر الذي يرتأيه بطيبة خاطر.

كانت رأس گوليات، حينذاك، خالية من آثار الخمرة فاصطبغ وجهه بحمرة الخجل وقال:

- صاحبي! الحصان وحده لا يساوي شيئاً. ولكني الحق أقول بأن كل ما يحتويه بيتي المتواضع سأحمله على الحصان الذي تختارونه. وإنه لشرف عظيم لي ولصوريا إذا تكرمتم بالبقاء عندنا، ضيوفاً أعزاء، عشر سنوات وأكثر، وسنقدم لكم كل خدمة في حدود إمكانياتنا.

\أبدينا له الشكر والامتنان من الصميم، وبقينا مصرين على أنه لا يمكن إلا أن نبتاع واحداً من جياده.
نهض دون أن يعقب على كلامنا، وخرج في الوقت الذي كنا نرتشف فيه ثمالة كؤوسنا الأخيرة من الشاي بصمت. وبعد عشر دقائق على وجه التقريب كان گوليات واقفاً بين حصانين أحدهما خمري اللون والآخر أبيض،

وهو أضخم من كليهما. وقف ينادينا لنتفضل باختيار أحدهما.
بعد تمعن وتفكير اخترنا الحصان الأبيض، ولكن گوليات اعتذر قائلاً:

- إن هذا الحصان الأبيض أكثر جنوناً مني. لأني، شخصياً، لا أمتطيه إلا بصعوبة بالغة، وبشق النفس. ولكن هذا الآخر هو أكثر وداعة من حمار مسن. وسيوصلكم إلى أي مكان بسلام وأمان. وبينما هو مسترسل في حديثه كانت يده تمسح بلطف جبهة ذلك الحيوان المدرك الوديع.

في الوقت الذي كنت أنقد گوليات ثمن الحصان (سبعين ليرة) كان حصاننا مسرّجاً ومجهّزاً، وعليه زوادة مكدّسة بالخبز والفطائر والبيض المسلوق، وزقّ من النبيذ بالإضافة إلى مطرة ماء. وقد تم تجهيز كل ذلك باتقان على يد صوريا التي وضعته في جراب على ظهر حصاننا الملوكي. وبعد المصافحة، وكلمات الوداع المقرونة بآيات الشكر والامتنان رُفعت استير بيدي گوليات القويتين ووضعت على صهوة الحصان. وقبيل أن نمضي في سبيلنا قدّمت استير واحداً من خواتمها الذهبية تذكاراً لصوريا.
ألقت استير شالها المخملي الأحمر على كتفيها في حين انتشر شعرها عليه وهو يتراقص على أنغام نسيم الصبا، وجوادها مرفوع الرأس بخيلاء بينما گوليات ممسكاً بزمامه كأنه حارس شرف.
تراءت لي استير، في تلك اللحظة، كمليكة الأشقياء وتصورت نفسي واحداً من أوائل قواتها (العاقين آبائهم).
خرجنا من تلك القرية وقطعنا شوطاً بعيداً وأنا ألقي، بين الحين والآخر،

نظرة خاطفة إلى الوراء فأجد صوريا واقفة تتأملنا ونحن نبتعد، رويداً رويداً عنها، حتى بلغنا طريقاً طويلاً وعريضاً فتحدث گوليات آنذاك قائلاً:

– انتبهوا جيداً يا أصحابي وكونوا حذرين، واسلكوا هذا الطريق وحـــاولوا الإسراع قدر المستطاع ولكن حذار أن تسيروا ليلا لأن هذا الطريـــق تحفـــل بالكثير من المخاطر أثناء الليل.

عندما صافحنا بعضنا بحرارة مودعين بدأ گوليات يمسح أنفه بمنديله الذي كان أكبر من ملحفة لأن عينيه قد ابتلتا وتسببتا في ابتلال عيوننا.

الفصل الخامس

أطرق گوليات برأسه وهو مثقل بالأسى، ويمّم وجهه شطر مسكنه في حين بدأنا، بدورنا، الرحلة على الطريق التي ستقودنا إلى خابورية حيث سنعثر فيها على بيت جديد، وحياة جديدة إذا تمكنا من الوصول، ولكن متى؟.

بينما كنتُ ممسكاً بالزمام وأنا اسير ممهداً الطريق الوعرة أمام الجواد، انتصب خيال أخي بنيامين أمام ناظري، ثم تلاه طيف أمي وتذكرت حديثها

وهي تنصحني بقولها: ايشاي! دع عنك استير يا ولدي. فنحن قوم فقراء لا نملك شروى نقير. وتمثلت كذلك موقفي وأنا أرفع كتاب آداب السلوك الضخم وأشج به رأسها، وتناهى لسمعي حينذاك صوت أبي واضحاً جلياً في تلك البرية قائلاً: ولدي ايشاي! لماذا جننت؟. إذا لم تعد إلى رشدك سيؤدّبك إلهي. وتجمّد طيفه أمام بصري، وظل يرافقني. فمه مدمى، ونظراته ملتهبة، وعيناه دامعتان، وشفتاه مرتعشتان. وبغتة جفلت عندما تعثرت قدم الحصان بحجر، فنظرت إليّ استير متسائلة بدعابة: – هل خفت؟.

وتأملتني وحاجباها مقطبان، ثم قالت:

– ايشاي!... لماذا تبكي؟.

– من الفرح. أجبت وأنا أكذب عليها.

بعد انقضاء عشر ساعات على مسيرتنا أخذ منا الجوع كل ما مأخذ. فمددنا سفرتنا إلى جانب صخرة وازدردنا طعامنا بسرعة، ثم نهضنا لمتابعة سفرنا بدون أن نأخذ أي قسط من الراحة. وطلبت إلي استير أن أركب معها فامتنعت، ولكني امتطيت أخيراً صهوة الجواد وأردفتها خلفي نزولاً عند رغبتها لأنها أصرّت على ذلك بعناد. فاحتضنتني بكلتا يديها، وشدتني إلى صدرها خوفاً وحباً. وأسدل الليل سدوله علينا ونحن على الطريق. ولم تكن تبدو أية إشارة تدل على وجود قرية قريبة منا. فصلّت استير حينذاك: (أبانا الذي في السماء). وختمت صلاتها بقولها: (يا أبا الرحمة نحن الخطاة أحوج ما نكون إلى نعمتك من أولئك الذين لم يأتوا ذنباً. آمين). فما كان مني إلا أن قرنت دعاءها بكلمة... آمين.

ولكي أبعد شبح الخوف عن مخيلة استير رجوتها أن تنشد لي إحدى أغانيها الجديدة التي لم أسمعها منها بعد. فلبت طلبي راضية لئلا تعكر صفوي، وبدأ صوتها العذب الرنّان المشعشع بالموسيقى الإلهية ينساب بهدوء مع النسيم ويلفح رقبتي، فينتصب شعر بدني كإبر تخزّ جلدي. وتناثرت كلمات تلك الأغنية، المرتجلة على صهوة الحصان، في دروب الأبدية نائحة:

أواه يابيتي ... أمسيت نائية عنك

كلما أمعن في البعد، كلما يزداد انسلاخي عنك

بابك موصد وعاتب علي

خلفتك بعيداً.... بعيداً عني.

******

بعيدة عنك، قلبي مهشّم وملوك

وإن كان حبك معتصر في نياط القلب

أتحسّر بحرقة ومرارة لذكرى سورك الشامخ

حيث بقي أثري خاوياً .... هنالك.

******

هربت منك يابيتي الحبيب

سأنهار، وأنت ستبقى صامداً

سأبحث عن مركب بلا شراع تلهو به الريح

أعيش فيه، وفؤادي يتلظى على جمرات الشوق.

******

أحببت هذه الأغنية كثيراً. ولكنني، في الوقت ذاته، مقتّها جداً لأنها عصرت حنجرتي وكدت أختنق عندما بدأ صوت استير يبحّ ويرتعش.

قلت، آنذاك، برقة متوددة:

- عشتِ... عشتِ يا آشوريتي الحزينة. يبدو أنك ستنشدين هكذا دائماً لأجل بيتك حتى نجن، معاً، ونصبح مشردين في هذا العالم.

أجابت:

- ايشاي! لو عشنا في قصور منيفة بين حدائق معلقة، ورقدنا على عروش ملكية، وسبحنا مع حوريات البحر، وصعدنا إلى إمبراطورية الملائكة، ولكن هيهات نعثر على بيت مريح كمسقط الرأس الذي نشأنا وترعرعنا فيه. أنا سعيدة بك ومعك ولكن.... الملجأ، الملاذ، ليس هنالك أجمل وأحلى من حضن الأم وحِمى الوطن يا ايشاي.

وبينما كنت غارقاً في الصمت أحاول البحث عن كلمة عزاء أمسح بها قلب استير الذي تلوث بالحزن سمعت فجأة وقع حوافر جواد قادم خلفنا، وصوت أجش يصيح:.... يا أصحابي تريثوا قليلا. فنظرنا مستطلعين فإذا به گوليات على حصانه الأبيض وهو يخترق الهواء كالسهم حتى توقف، أخيراً، بجانبنا يلهث وصدره يعلو ويهبط وهو سابح في عرقه، وكذلك كان الحصان الذي كان يزفر من شدة التعب.

قلت : خيراً يا سيدي؟.

فأجاب، وهو يدس يده اليمنى تحت زناره العريض،: بالتأكيد هو خير يا

صديقي لأني ابن خير وسليل الأخيار، وحليب أمي نقي وطاهر، ودم أبي صافٍ وقانٍ. ثم أخرج يده من تحت زناره وهي ممسكة بصرّة قدمها لي فعرفت، على التو، بأنه منديل استير الحريري الأحمر الذي يحتوي على كل ما نملك من مال وقد نسيناه في منزل هذا الآشوري الشهم. سليل دم أحمر قان، وحليب صاف طاهر. وقد سلمه لنا بكل أمانة، وترك قلوبنا ترقص طرباً بين جوانحنا.

أمسكت استير يد گوليات بكلتا يديها وقالت:

- مولاي العظيم! أتوسل إليك أن تأخذ نصف هذا المبلغ حلالاً لك، وأرجو ان تتقبلها منا هدية متواضعة وإن كانت هذه كل ثروتنا، وكل ما نملك في هذا الوجود.

ها... ها... أختاه. قهقه گوليات ثم قال:

- لو كنت أطمع بثروتك لما رددتها إليك، لأنها كانت بحوزتي، ولكن ثقي بأني لو كنت أملك مالاً لضممته إلى ثروتك هذه.

بدا لي گوليات، في تلك اللحظة، كأنه أبي فقلت له:

- يا گوليات المحترم! إنك تستحق، بكل جدارة وشرف، أن أصنع لك تمثالاً من الذهب ليكون مثالاً أبديا للإخلاص والكرم والشجاعة والمروءة، وأنصب تمثالك هذا في صدر منزلي لأقدم لك على الدوام أسمى آيات الاحترام والتقدير.
- سيدي ايشاي! أجاب الرجل الشهم الرؤوف برقة ممزوجة بالعنف: إن الأريحية لا تقتنى بالمال ولا بالثرثرة أو الادعاء الفارغ. ولكنها

تكمن في مسالك وممارسات الأشخاص الكرماء الذين يأنفون الإطراء والمديح، ويفرون من الشهرة، ويجبرون عثرات الآخرين ببالغ السرية والكتمان. ولكن لا يجدي عطاء الإنسان نفعاً بين ظهراني أولئك الذين ينكرون الجميل والمعروف، ويغمطون حق واهبيه. ويعمدون، في كل مكان وزمان، الى شدّ الأشرعة المتراخية حين يؤول مركب الأوضاع والظروف للانقلاب في مياه السلطة المغرقة.

أجبتُ:

- بالحق نطقت يا سيدي. ولكن، ويا للأسف، نوادر جداً هم أولئك الذين يفكرون بمد يد العون للآخرين. حتى أن تفكير أولئك، أيضا، لا يتعدى المجال النظري، أضف إلى ذلك أنهم يعتمدون أسلوب النقد الجارح المزري في كشف مثالب المحتاجين عوضاً عن اللجوء الى رأب صدع أسوار حياتهم الآيلة للسقوط.

عقب گوليات قائلاً:

- دعنا الآن من كل هذا يا صاح لأننا كلما نبشنا سلبياتنا كلما فاحت روائح همومنا وسبقنا الزمن. ولكن قل لي الآن بصريح العبارة: إلى أين أنتم متوجهون؟. ومن أين قدمتم؟. ولماذا، كالأشقياء، تجرون كالشهب الآفلة التي لا تعرف مستقراً لها؟. فشرعت آنذاك وبكل صراحة أروي له قصتنا منذ بدايتها حتى هذه اللحظة.
- معكم كل الحق أن تبتلوا بهذا المرض الغريزي الذي يدعى الحب.

وكما هي العادة دائماً فإن معظم العشاق يأتون أعمالاً مؤسفة وذلك لأنهم يتأملون ويناجون القمر كثيراً. ثم أدار وجه حصانه صوب الطريق المؤدية إلى قرية خابورية، فتبعناه بدورنا طائعين.

- سأتقدمكم لأضمن وصولكم بسلام كي لا تخجل بي جرأتي وشهامتي، ويؤنبني ضميري. قال گوليات وبدأ يحمحم بأغنيته المعهودة (أمي... يا أمي). لربما أنه لا يعرف أغنية سواها، أو أنه لا يهوى الغناء إلا بتمجيد ذكرى أمه.

بينما كان گوليات منسجماً مع نفسه وهو يخور، وفي اعتقاده أنه يغني، أخرجت جرّة الخمر من جرادنا (وإن كنت في ريبة وخوف من أن يسكر ويعمد إلى خنقنا). وبعد أن أنهى أغنيته دعوته ليتفضل، ويشرب من نبيذه الخاص. وأكدت له بأننا شخصيا لن نذوق منه قطرة واحدة.

شكرنا. وأثبت مصداق كلامي بأن هذه الخمرة مناسبة، وملائمة جداً لهذا السفر وخاصة في هذا المكان. ثم رفع الجرّة القرميدية إلى فمه ولكنه حين أعادها لي كان الهواء يصفر في قاعها.

مضينا مسيرة خمس ساعات قدماً وگوليات يروي لنا سيرة حياته، ولادته، نشأته، وأوضاعه. ولشدّ ما حز في أنفسنا حين روى لنا قصة أبيه وأخيه البكر اللذين نُشرت جمجمتاهما وهما أحياء، وذلك في إحدى المجازر التي اقترفها الأعداء المجرمون بحق أهل قريته. ثم عقّب على ذلك بالحديث عن الأيام البائسة التي تقاسمها مع والدته والتي أسلمت الروح، ورأسها في حضنه ، نتيجة الهمّ والألم والخوف والجوع. ثم أطّر ماضيه المؤلم بقصة

حبه لصوريا. ولكم يحب زوجته صوريا هذه والتي ليس له سواها في هذا العالم، وكم يتمنى من الله أن يرزقه أبناء (لا بنات) لكي يزداد شكره وامتنانه لربه، ويزداد تعداد شعبه القليل. وكم يعمل بقسوة في النهار، ويشرب كذلك في الليل (في منزله). وكم يحمّلها من العناء والعذاب في حالة سكره. وكيف يعتذر إليها ويكسب ودّها في صبيحة اليوم التالي. وما إلى ذلك من الأحاديث الشيّقة والمحزنة.

مضينا على هذا المنوال ونحن نتحدث حيناً، ويعيد هو أغنيته المشهورة (أمي يا أمي) حيناً آخر، ثم نصمت معاً لساعات بينما جيادنا تتقدم ببطء وهي مكدودة تحت ثقل أجسامنا. تصهل بين الفينة والأخرى ثم تنصاع للسياط التي تأمرها بالاتجاه يميناً أو يساراً، أو السير بتؤدة وحذر وذلك بشد ألجمتها.

كانت تلك الليلة حالكة السواد. ولكن وجهها كان يشحب، بين الحين والآخر، بفعل أشعة القمر التي كانت تنسكب علينا وعلى الصخور الصلدة الصماء حين كانت الريح تطرد الغيوم من شرفة القمر. وهكذا، أمضينا تلك الليلة بين الحديث والانسراح في الذكريات، والإغفاء على صهوات جيادنا.

حوالي الساعة الرابعة غداة يوم الأربعاء لمحنا قرية خابورية من فوق قمة الروابي المطلة عليها من الجهات الأربع. وقفنا لحظات نتأملها ونرنو إلى بصيص المصابيح التي كانت أشبه بالنجوم الآيلة للأفول. وكانت القرية تزدان بالأشجار الكثيفة الباسقة حيث يخيم الظلام الدامس بين ثناياها. أما منازلها فكانت مختلفة الأشكال إذ كان بعضها شاهقاً وبعضها الآخر وضيعا.

كانت استير غافية خلف ظهري، ورأسها تتوسد كتفي حين بدأنا ننحدر على

ممرات ضيقة تلتوي بنا يميناً ويسارا، وصعوداً وهبوطاً بينما كان رأس حصاننا بمنأى قليلا عن ذيل حصان گوليات في حين كنت أستمد الجرأة من شخصيته القوية بين صخور تلك الأراضي الغريبة. فتح گوليات فمه وقال:

– إيشاي! أيقظ استير.

أدرت وجهي، وهززت رأس استير وأنا أردّد اسمها. وفجأة ارتفعت قائمتا حصاننا الأماميتان في الهواء، وعندما حطتا على الأرض رأينا جوليات يتحدث إلى فارسين كانا قد سدّا الطريق أمامنا بجواديهما.

كان گوليات يزعق بأعلى صوته وهو يخاطبهما بلغة غريبة. أحدهما كان ضخماً هائل الجثة وهو الذي كان يراطنه جوليات. كان له شاربان كثان كذيل عقرب من كل طرف منخاره، وشرابة تتراقص على أنفه وعينيه وتتدلى من تلك الخرقة التي كان يعصب بها رأسه الحمقاء.

أما الآخر فكان شاباً يتراوح عمره بين الثامنة عشر والعشرين عاماً، وكان يحملق فيّ وفي استير كما يحملق الثعلب في الدجاجات. وأنا بدوري أقارعه النظرات، وكنت على استعداد للوثوب عليه كما يثب العنكبوت على الذبابة.

خمس دقائق مرت، تقريباً، وگوليات يجادل ذلك البربري المتوحش بالصراخ والزعيق. وأخيراً اقتربا من بعضهما أكثر فأكثر حتى لامس رأس حصان كل منهما ذيل حصان الآخر. وبغتة مدّ ذلك الهمجي أصبعه في عين جوليات الذي استشاط غضباً، وتطاير الشرر من عينيه. وما كان منه إلا أن أمسك بتلابيب ذلك الأخرق بكلتا يديه واقتلعه من سرج حصانه وضربه على رأسه بكل ما أوتي من قوة، ورمى بنفسه فوقه.

قفز ذلك الشاب كالنمر ونصل الخنجر يلمع في يده، وهرع لنجدة أبيه الذي كان ينازع تحت ثقل گوليات وبين يديه الفولاذيتين.

ولولت استير بأعلى صوتها حتى خيّل لي بأن العالم بأسره قد سمع صراخها. ومرّ الشاب بجانبنا وهو في طريقه لإنقاذ أبيه ولكنه حين تعدانا قليلا، وقد أصبحنا خلفهن ألقيت بنفسي فوقه كالحيّة الرقطاء، وانغرزت سكيني في ظهره من جرّاء ثقلي، ووقعنا معاً على الأرض نتمرّغ في التراب. وظل نصل سكيني في عموده الفقري. وفي الوقت الذي كنت أضغط ركبتي على خاصرته كان يحاول بدوره استعمال سلاحه ولكني كنت أشدّ بقوة وعنف على ساعديه حتى ارتخت أصابعه خلال لحظات وسقط الخنجر من يده، فالتقطته وقفزت واقفاً على قدميّ، ثم ركلته ركلتين قويتين تحت ذقنه كانتا كافيتين لتلقيا برأسه جانباً وليتدفق الدم، بعدها، من فمه غزيراً يسيل على التراب البارد. وقلبته بعد ذلك على جنبه. ولكني حين سحبت سكيني من جسمه شعرت بقشعريرة باردة مشّطت أوصالي لأنه مات كالكلب الفاطس.

أسرعت إلى حيث كان گوليات. فوقع بصري على مشهد تقشعر له الأبدان إذ كان لسان ذلك الوحش قد تدلى طويلاً خارج فمه ويدا گوليات تضغطان بقوة على عنقه حتى جحظت عيناه مثل حصاتين بيضاوتين خارج حدقتيه، ثم أمسكه بأذنيه وصار يرفع رأسه ويضربه على صخرة لمرات ومرات حتى أصبح، هو أيضا، جثة هامدة لا حراك فيها.

نهض گوليات واقفاً فتراءت على جنبه الأيسر بقعة كبيرة حمراء فوضع يده عليها وقال:

- أنا الذي ألقيت بنفسي على خنجره.

ثم أشار إلى الجهة التي كانت فيها استير حين لمحها ورأسها على الأرض، ورجلها معلقة في الركاب وهي مغمى عليها. فهرولت مسرعاً وجثوت أمام رأسها ومددت أصابعي بين طيات شعرها، ولمست وجهها بشفتي ولكنه كان بارداً. كل ما أتذكره أني تفوهت بكلمة أو حشرجة واحدة لا غير هي ... گوليات.

الفصل السادس

في أقل من لحظة كان گوليات إلى جانبي. ثم جثا على ركبته، ومد يديه تحت منكبها، وبدأ ينهض على مهل وهو يرفع جسد استير في حين كان ثوبها يغطي وجهها وقد تعرى القسم الأكبر من جسمها، فصرخ جوليات بي كي أخرج قدمها العالقة في الركاب. فشعرت، وقتذاك، بأني أقل شأناً من قزم أمام هذا الجبار الصنديد. وكمن أصيب بالهلع نزعت فردة حذائها من تلك الحلقة الباردة. فوضعها، بعد ذلك، بكل تؤدة على الأرض وغطينا جسمها العاري بثوبها ولكن رأسها كانت قد تدلت على جانب وقد ساء خلقها، وأربد وجهها.

عندما نهضتُ واقفاً لأجلب مطرة الماء من جرابنا انتصبت وجوه أبي وأمي ومولانا اسحق ويوليوس أمام ناظري، واحداً تلو الآخر، وبيدين مرتعشتين رششت الماء البارد على وجه استير وصدرها. فحركت رأسها قليلاً، ثم ما لبثت أن فتحت عينيها ونادت: إيشاي. فأمسكت بها وهززت جسمها، وصرت أسخر من ضعفها وجبنها مازحاً وملاطفاً (بينما كلي موضع سخرية وازدراء).

تحاملت على نفسها وجلست. ثم بدأت تدير وجهها يميناً وشمالاً وسألتنا، بعد ذلك، إذا كنا قد أصبنا بأذى؟. ونهضت واقفة حين شاهدت البسمات تزغرد على وجهينا ولكن حين وقع بصرها على جثتي الأب والابن وكأنهما في قيلولة أدارت ظهرها إليهما وطلبت منا أن نغادر هذا المكان على الفور.

كانت جيادنا واقفة على بعد خمسين متراً تقريبا من الجثتين. فأمرني گوليات أن أذهب وأجلب عمامة أحد الماردين المجندلين. وحين عدت، لقيت گوليات منهمكاً في كشط جلد حزامه بسكين حادة بينما استير ممسكة بقوة بطرف الحزام ولكنه حين كان يشدّ بالسكين إلى طرفه كان الحزام يفلت من يدها لأنها كانت ضعيفة جداً أمام قوة وجبروت سواعد گوليات.

أمسكت طرف الحزام العريض بكلتا يدي وشددت عليه بكل قوتي، وخلال ثوان معدودة كان حِجر استير قد امتلأ بمسحوق الجلد فرفع گوليات، حينذاك، طرف قميصه وكان الدم لا يزال ينزف من جنبه الأيسر في حين كان جزءاً كبيرا من جلده قد انكشط ولكن الجرح

طلب إليّ أن أحشو من ذلك المسحوق في جرحه الدافئ. وفي الوقت الذي كان بدني يقشعر، وشعر جسمي ينغرز في جلدي، حشوت ذلك الجرح بمسحوق الجلد. ثم عصب جرحه بعمامة ذلك الشاب القتيل. ولكن استير دفنت وجهها في راحتيها، ولم ترفعه إلا بعد أن أعلمناها بأنّا قد انتهينا. ولكنها كانت تقضم شفتها السفلى بأسنانها العليا وقد عقدت حاجبيها فتنهدت، آنذاك، تنهيدة طويلة (خجلت أن أبكي).

بعد أن شدّ گوليات رباط حصاني القتيلين على صخرة قريبة امتطيت صهوة جوادي بناء على أمر منقذ حياتنا هذا، ومعيد ثروتنا المفقودة بكل أمانة وإخلاص. واحتضنتني استير، ثانية، بعد أن رُفعت ووضعت على السرج خلفي. ثم قفز گوليات على صهوة حصانه وبدأنا ننحدر من فوق تلك الرابية حتى بلغنا السفح، وكانت تبدو لنا الجبال من كلا الجانبين كأنها ملتصقة

بالأفق. وبدأنا الصعود من جديد عبر ممرات ضيقة ذات التواءات عديدة وبعد انقضاء ساعة بلغنا القمة.

بدأت الشمس تنشر أشعتها الذهبية، وتجلو بوضوح كل ما حولنا. وتراءت لنا قرية خابورية التي أشرفنا عليها من عل.

توقف گوليات. وبعد التحاقنا به توقفنا إلى جانبه صامتين. واستقر بصري على وجهه المحمر كعرف الديك وهو يمضغ شاربه الأيمن بين أسنانه، وجبينه مقطب، وعرق غليظ ناتئ ومنتصب في جبهته وقد اختفى أعلاه تحت غرته وعيناه محمرتان قليلاً. وبدأنا نتبادل النظرات ونحن نغض الطرف بين الحين والآخر حياء منه ورهبة من ذلك الصمت الرهيب الذي بسط جناحيه فوقنا، ومن الأسى الذي خيّم فوق وجهه حيث لم تكن تهتز منه شعرة، أو يرف له رمش.

أدار وجهه وبدأ يمعن النظر إلى الأسفل حيث موقع قرية خابورية بينما عيناه تضيقان وتتسعان وهو سارح في الخيال وجبينه ينعقد وينبسط حسب ما يجول في خاطره من الأفكار والهواجس. ثم ما لبث أن التفت إلينا وتنهد بعمق وافترت شفتاه عن ابتسامة مجاملة هزيلة وقال:

- صاحبي إيشاي! لو كنت صاحِ تلك الليلة التي شرّفتم فيها منزلي لما كان هذا الدم قد أريق. ولما كانت هذه الكوارث قد حصلت. ولكن الحق علي، وأنا الأحمق الملوم لأني لم أسألكم إلى أين أنتم ماضون؟. وما هي حكايتكم؟. فلو كنت قد سألتك وأجبتني بصراحة وصدق لما كنت تركتكم تغادرون داري إلى اليوم الذي كان رأسي

يتوارى في التراب. ولكني بريء والحق كل الحق على الخمرة. والخمرة قد تسبّبت في خلع ملوك عظام عن عروشهم، وحطمت وقار وسمو سراة وأشراف كثيرين. جعلت من الأثرياء متسولين، وسقت الآباء من دم فلذات أكبادهم. الخمرة هي مقبرة العلم، وهي التي تذل النفوس العظيمة، وتحوّل الجبابرة إلى أقزام ضعفاء خائري القوى. حتى أن الأنبياء ذاتهم قد اشمأزوا منها وحرموها، ولعنوا شاربها علانية. ولكني أقسم بأني سأعود، منذ اللحظة، وأحطم كل الدنان التي بحوزتي ولن تمسها شفتاي حتى اليوم الذي سأقف بين يدي المسيح ربي ليحاسبني كمطلق للخمرة، وماقت لشاربيها وصانعيها. والآن إذا أحببتم فعودوا معي.

أجبت بحياء وقد أضفيت على صوتي رقة ونقاء:

- مولاي گولیات! نحن بالحق سبب هذه الفاجعة وهذا الهول، وندعو إلى الله، ونتوسل إليه أن يلقي بذنوبك على عواتقنا لنستطيع أن نفي بجزء يسير من معروفك وجميلك. ولكن الشيء الذي لم يكن بد ومناص من حدوثه قد حدث بمشيئة الله ولا خيار لنا فيه، ولربما لو لم نكن قد التجأنا إلى كنفك لكنت قد فقدت حياتي، وأصبحت استير، بعد ذلك، جثة هامدة بين أيادي قطاع الطرق الهائجين الشبقين. لهذا، فأنت لست قاتلا ولكنك واهب الحياة لكلينا، ومنقذ شرفنا وكرامتنا.

دون أن يعقب گولیات على خطابي القصير مدّ إصبعه يثقب به الهواء، صوب الجهة اليمنى من قرية خابورية، وقال:

- إذا لم تكونوا على معرفة بأي إنسان في خابورية فاتجهوا نحو تلك الزاوية من القرية، وإلى آخر بيت، واقرعوا بابه فستستقبلون بالترحاب من قبل كاهن يدعى (أخيقار) وبلغوه بأنكم موفدون من قبلي، وصارحوه القول لأنه يمقت الكذب والكذابين.

بعد أن ألححنا عليه كي يرافقنا، ويأخذ قسطاً من الراحة في منزل الكاهن أخيقار، ويداوي جرحه ويعرفنا على أهل تلك القرية وأعمالهم، ويساعدنا في إيجاد مسكن نقيم فيه طوال حياتنا. صمت ولم يتفوه بكلمة، ولكنه اكتفى بأن هزّ رأسه. فتأكدنا، ساعتذاك، بأن من الأفضل له لو يعود بسرعة، ويصل إلى منزله وليأخذ في طريقه جوادي المجرمين كغنيمة حلال قد دفع ثمنها من دمه. وأكد لنا بأن الكاهن أخيقار سيسرّ بنا، وسيشيدنا في ذلك البنيان الذي سنختاره بإرادتنا.

مدّ كل منا يده اليمنى من أجل توديعه، ولكنه كاد يطرحنا أرضنا من فوق ظهر جوادنا وذلك بتأثير مصافحته لنا وهزّ يدينا إضافة إلى القبلات العنيفة على جبهتينا.

أدار گوليات كتفيه العريضين إلينا، وأخذ حصانه المجنون يسابق الريح ونحن نتبعه بأبصارنا، وعيوننا مخضلة بدموع الفراق وحلقانا ناشفان، حتى انحدر من ذلك الطريق الذي صعدنا عليه، وذاب كما يذوب الحلم في الخاطر.

الفصل السابع

مضينا قدماً لأكثر من نصف ساعة ونحن صامتان، متسربلان بالحزن والأسى حتى يخال بأننا قد فجعنا بأعز الناس إلى قلوبنا. ثم تفوهت استير قائلة:

– إيشاي! كم هو ظالم هذا الكائن الذي يدعى الإنسان، وكم سيظلم إذا استطاع إلى ذلك سبيلا. وكم ينسى أو يتناسى بأن، هنالك، شيء يقال له رحمة أو شفقة عندما يمارس الظلم والجور. ولربما سيستمر في ممارسة ظلمه على الآخرين بشكل لا يتصوره العقل إذا لم يقع هو ذاته فريسة لظلم غيره. الإنسان فتاك ومدمّر ومحرق. ولكن إذا أمعنا النظر في الوجه الآخر منه سنرى كم هو رؤوف رحيم وخلوق ومتواضع. وكم هو زارع و مبدع ومنتج. وكم يستدرّ العطف عندما يكون ضعيفاً، وحين ينازع. وكم يلعب من أدوار في حياته، وكم يترك من عبر ومواعظ وأمثال بعد رحيله.

– حقاً إنه لكذلك. أجبت. ثم استطردتُ قائلاً:

– الموت يشلّ حركة الإنسان. ولكن الواحد منا يتعلم من تجارب ومسالك الآخرين، إيجابية كانت أم سلبية، لذلك فنحن عندما نموت، نموت بالجسد فقط وليس بالذكر. قد نموت أحياناً ونحن على قيد الحياة وهذا أسوأ موت. وللموت أشكال ووجوه متعددة. فنحن نموت عندما نفقد الشرف والكرامة. ونموت عندما نبتلي بالفقر. ونموت عندما ننغمس في الشرور، وننبذ الواجبات الروحية. ونموت عندما نفقد الغيرة القومية، ونتقاعس عن مساعدة المحتاجين من أبناء أمتنا. وكذلك نموت عندما نهمل أدب ولغة الأم، وما إلى ذلك من صنوف الموت التي لا تعدّ ولا تحصى.

وهكذا، ونحن نتفق معاً في كل رأي ووجهة نظر، وفي كل المشاعر والأحاسيس وصلنا إلى أطراف بعض الحقول التي كان يعمل فيها بعض الناس، وبعضهم الآخر قد باشروا العمل لتوهم، والبعض مازالوا يتقدمون على الطريق. وقد التقينا في نهاية تلك الحقول فتاة هيفاء، فارعة القوام تتشح برداء طويل، ويكلل رأسها ضفيرتان سوداوان تتراقصان على كتفيها، وفي يدها حبل رفيع تجرّ به، خلفها، خروفاً أبيض منمّقاً بالسواد وقد ارتسمت على محياها علائم الدهشة والاستغراب عندما وقع نظرها علينا.

فبادرتها بالسؤال، حين دنونا منها، قائلا:

– أختاه! هل لك أن تتفضلي وتدلينا على دار الكاهن أخيقار؟

تورّدت وجنتاها وأجابت:

– هيا... اتبعاني. ثم حملت خروفها بحيث أصبحت قوائمه إلى الأعلى.

وبدأت تهرول ونحن ندير وجهة جوادنا وراءها صامتين إلى أن دخلنا بستان ملفوف، ومنه دخلنا داراً ذات سور عالٍ تمرح في باحتها دجاجات وحمائم، وماشية وعجل صغير يرضع من ثدي بقرة قد نشاركه طعامه بعد حين.

اختفت تلك الفتاة من أمام ناظرنا إثر دخولها في بيت ذي باب وطيء. فترجلت عن ظهر حصاني، وساعدت استير على الترجّل، فذهب حصاننا المجهد، تواً، لمشاركة أم ذاك العجل زادها بدون حياء أو خجل (مثلنا تماما).

كان الكاهن أخيقار نحيف الجسم، طويل القامة، ومحدوب الظهر قليلاً. ولكن قوامه كان رشيقا لأن يد الزمن قد صقلته على أحسن صورة ومثال. أما لحيته فإن لم تكن في بياض الثلج فهي أشبه باللجين. جبينه شامخ، وشعره كدرع فضة تذود عن رأسه المترعة بالحكمة غوائل الحمق، وغلاظة الإنسان الذي يتسبّب في خلق المتاعب والمشاكل. أما هيكله فكانت تزينه جبة سوداء يلمع على صدره صليب نضار أشبه بنجم المجوس قبيل انبلاج البلجة في الأفق الداكن.

كان أبونا الكاهن هذا ذا صوت رفيع كصوت طفل في العاشرة حينما تحدث قائلاً:

– أهلاً .. أهلاً. تفضلوا إلى البيت لتتدفأوا، فالطعام جاهز ينتظركم بسرور.

فانحنينا لتقبيل يده ولكنه حاول سحبها، ولكنا لثمناها بقوة مشبوبة بحرارة الإيمان والاحترام. وهكذا، فإن الفتاة التي طلبنا إليها أن تدلنا على دار الكاهن قد جاءت بنا إلى دارها لأن ذلك الكاهن المبجّل لم يكن سوى والدها، وهي ابنته الجميلة.

بعد أن سلّمنا مصافحين زوجته (رفقة) وابنه (أويقم) وابنته (يوليطه). جلسنا على مائدة الفطور لنرسم شارة الصليب، ونبدأ بالتهام الطعام بشهية وحتى التخمة. ونتقدم بعد ذلك بالشكر الجزيل للرب. ثم شكرنا، بامتنان، الكاهن وأهل بيته لما لمسناه لديهم من كرم الضيافة. فطرح علينا آنذاك هذا السؤال:
– من تكونون؟. ومن أين أنتم قادمون؟. وإلى أين ستتوجهون؟.
وأنا أغضّ الطرف حياء من صورته الجليلة المشوبة بقوة خفية أعلمته بأننا مرسلون من قبل السيد گوليات. وقد سررنا جداً حين علمنا أن(صوريا) هي ابنة كاهننا الموقر، وإن گوليات هو صهره. وأضفتُ قائلاً: نحن شخصياً نحب الصدق، ونكنّ خالص الودّ والاحترام لكل إنسان يكره الكذب والكذابين. فابتهج بقولي هذا وأشرق وجهه بالفرح وشكرنا ثم طلب إليّ أن أخبره حقيقة أمرنا بدون موارية. فبدأت حينذاك أروي له حكايتنا منذ شروعها حتى هذه اللحظة. وقد سرّ كثيراً لأني صدقته القول، لكنه تأسف جداً لاقترافنا هذا الخطأ الجسيم ووعد بمساعدتنا. وتعاهدنا بدورنا على أن نكفّر عن ذنبنا بتقديم فوائد جليلة وذلك بأن نقوم بتعليم القراءة والكتابة بلغتنا الآشورية، وبلغات أخرى لأبناء هذه القرية التي تفتقر إلى العلم و الثقافة والأدب.
خلال أسبوع واحد تعرفنا على شيوخ الكنيسة، ومسؤولي تلك الجمعية الصغيرة في خابورية. وقبيل أيام من بدء الصوم الصغير دُعي عدد كبير من أشراف ووجهاء تلك القرية، مع عائلاتهم، اللواتي عقدت استير مع عدد كبير منهن أواصر الصداقة خلال مدة وجيزة. وأقيمت حفلة كبيرة في باحة كنيسة الرسول (مار أدّاي) بعثت الغبطة والسعادة في نفوس أولئك الذين دعاهم

الكاهن أخيقار بعد إقامة مراسيم قراننا حسب شريعة الآباء الكنسيين الثمانية عشرة بعد الثلاثمائة.

واشترينا منزلاً لائقاً، إضافة إلى ما يلزمه من أثاث. وقد سددنا ثمنه من مالنا الخاص. ومنذ يوم الأحد ذاك الواقع في الثامن من شهر تشرين الثاني عام واحد وثمانين وثمانمائة وألف للميلاد (1881) بدأنا نكسب أصدقاء كثيرين. ولكن رغم كل محاولاتي الطيبة لم استطع سبيلاً إلى بتر نتوءات العداوة من قلوب بعضهم وذلك لأن جمال وحشمة وعلم إستير قد حرّض الحسّاد ضدي. وقد نجوت من الموت مراراً بأعجوبة وذلك بفضل الله ومنته أولاً، وبفضل يقظتي ثانياً. أما إستير فقد كان حبها لي يزداد يوماً بعد يوم، وأحبتني بنضج أكبر وباضطراد إلى اليوم الذي ماتت فيه، وأماتت روحي معها.

كان يوجد في قرية خابورية، حسب إحصائيات الكاهن أخيقار، 997 بيتاً، و2989 نسمة، منهم 1125 شاباً منتجاً وقادراً على حمل السلاح، و 485 طفلاً وطفلة مؤهلين للقبول في المدرسة الابتدائية. أما ما تبقى منهم فنساء وشيوخ ومقعدين.

اتفقنا، إستير وأنا، على القيام بتشييد مدرسة في القرية تموّل مشروع بنائها من رأسمالها الخاص علماً بأن الكاهن أخيقار قد ساهم بكل ترحاب في التبرّع بكمية من الذهب. وطرح هذا المشروع، قبل البدء بتنفيذه، على شيوخ الكنيسة والمسؤولين الرسميين لأخذ رأيهم، ونال موافقة الجميع. ولكن قليلاً منهم من ساهم بالمال أو العمل. كما حقد علينا بعضهم لأننا حسب اعتقادهم قد كشفنا، بعملنا هذا، عن هذه النقيصة التي كانت مستترة في هذه القرية المتخلفة جداً.

خلال أيام عصيبة من تداول الرأي، والأخذ والرّد بين أهل خابورية المتحمسين وما نتج عن ذلك من سلب وإيجاب، وبعد ثمانية أشهر فقط أقيم بناء شامخ مؤلف من اثنتي عشرة غرفة، وباحة واسعة وذلك من أجل تعليم أبناء وبنات آشوريي خابورية.

استلمتُ مهمة تعليم لغتين أجنبيتين. وكُلفتْ إستير بتعليم اللغة الآشورية الحديثة. وقد اعتقدنا، لأول وهلة، بأن ما نقوم به لهو عظيم جداً بحيث أنه لاغنى عنه. ولكنا سخرنا من بعضنا عندما أدركنا مدى سخف رأينا بعد أن لمسنا درر الفوائد التي كان يبعثرها الكاهن أخيقار بين يدي تلاميذه وذلك بتدريسه اللغة الآشورية الفصحى. تلك اللغة الربّانية. لغة الموسيقا والأدب. اللغة المقدّسة والرسمية لآبائنا الملافنة المهرة الأمجاد. لقد كان يدرّس مقاطع من ميامر (قصائد) العلماء الجديرين بالإجلال والاحترام والقداسة أمثال مار أفرام، ومار نرساي، وعلم اللاهوت الذي دبّجته براعة مار عبد يشوع الصوباوي، وغير هؤلاء من العباقرة الأفذاذ الذين ساهموا في إظهار وإبراز نعيم وجلال الله.

في السنة الثامنة، وبعد أن تخرّجت على يدينا فئة من المعلمين الأوائل، توقفت إستير عن متابعة التعليم بسبب إنجابها، وقد أصبحت أماً صغيرة لإبننا يوسف.

إن لم نكن سعداء خلال مدة إقامتنا في خابورية لم نكن عكس ذلك قط. وإن كنا قد تناسينا أهلنا لفترة من الزمن ولكننا كنا نتذكرهم باستمرار، ولا تنفك سيرتهم تتردّد على ألسنتنا، وخاصة على لسان إستير التي كانت تحقد، فيما

سبق، على أخيها يوليوس ولكنها، بعد مضي وقت قصير، بدأت تلهج بذكره، وتذرف الدمع سخياً في كل مساء (من أجل أخيها الذي اشتاقت إليه مع العلم أنها علّة أحزانه وآلامه) على نسيجها الذي كانت تحيكه سريعاً بأناملها الرشيقة بينما أنا أجتّر حزني و كمدي، وألعن نفسي بصمت (في حين كان زجاج قلوب أهلنا متصدعاً).

لا أستطيع، مطلقاً، أن أصف أو أصوّر بالكلمات سلوك وفضائل إستير ومثاليتها في النظافة والتوفير والتدبير المنزلي.

أحياناً كثيرة، وعلى امتداد ليال عديدة، وأثناء إنشادها المهدهد الذي كان يعبث الرقاد في أجفان ابنها يوسف كانت عينا إستير تخضلان بالدمع بلا سبب وهي تبتسم لي ابتسامة مجاملة في حين كنت ألمح في عينيها، وبين دموعها مأتماً رهيبا.

في صباح أحد أيام الأحد وقد أوصدتُ الباب والنوافذ وبدأتُ بقتل وإبادة مئات وآلاف الذباب ضحكتُ كثيراً حين رأيت إستير وهي تبكي حزناً على الذباب القتيل الذي ما هو إلا مصدر خطر ووباء إذ قالت بحسرة:

– لماذا تقتله؟. كشّه خارجاً.

واسترسلتُ في الضحك حتى بدوت لها كطفل أحمق بليد.

لقد كان لكل شيء، مهما كان ثميناً أو بخسا، موضع خاص لدى إستير. حتى الإبرة والأزرار، وعلبة الكبريت والمسواك، وكل ماعداها من الأشياء الصغيرة والكبيرة.

كانت تبدو،على الدوام، كئيبة تلوح في عينيها نظرات حالمة حزينة، وتعتمل في نفسها مشاعر الهمّ والأسى. تبكي باستمرار بحرقة وصمت، وتذرف الدمع وهي في غاية الشوق إلى ذويها. وتضطرم في قلبها لواعج الهم والغم حتى أصبح النحيب عادة متأصلة تعزّيها، وتغسل بدمعها أدران الكآبة المتراكمة في أعماق مهجتها ومخيلتها. وقد اكتسبت منها، بدوري، تلك العادة إذ لازم الدمع خديّ لا يبارحهما على الإطلاق.

كنت أخالها مصابة بالرشح والزكام. أنفها محمر، وعيناها مخضلتان بالدمع. ولم يكن ذلك، قط، دليل عدم الإحساس بمعاناتها، أو عدم اهتمامي بما تكابده من هموم، أو أن حبي لها قد أصابه الفتور. ولكني الحق أقول: بأنها خلال ثمانية عشر عاماً، ومنذ مغادرتنا الأهل واستقرارنا في خابورية لم تسبّب، مرة واحدة، وخلال تلك المدة الطويلة في إيذاء مشاعري، أو اختلفت معي حول فكرة أو رأي، ولم يحصل بيننا أي سوء تفاهم وذلك لأن حبي لها كان لا يزال متّقد الجذوة، وحديثها معي يحمل في طياته كل معاني النبل والوفاء والمودة. وكان سلوكها مثال الطهر والنقاء، وهي لاتني تؤدي فرائضها وواجباتها بكل دقّة وانتظام. مرتّبة في كل شيء، ولا تستهتر أبداً بأي شيء. وهكذا، وعلى هذا المنوال مضت ثماني عشرة سنة لم ينقصني خلالها شيء، أوتفوّهت مرّة بطلب شيء، أوتذمّرت شاكياً من أجل أي شيء ما قد احتجت إليه في يوم من الأيام. لقد ضحّت براحتها من أجل إسعادي، ووهبتني الراحة والنظافة والسعادة العائلية، وعوّضتني محبة الأهل وعطفهم وحنانهم. ولكن عندما سُلبت روحها ورأيتها مسترسلة في النوم وهي مخضّبة بدمها، وجسمها

بارد قد فارقته الحياة، شبّهتها بطفل صغير لا أهل له.
رغم أن استير قد قُتلت. ورغم أني، شخصياً وبالذات، قد وضعت كتفي تحت نعشها. ورغم أني على امتداد ستة أشهر قد ضممت شاهد قبرها يوميا، وسفحت عليه الدمع السخين، وبكيت بحرقة ولوعة من أجلها، ولكني لاأصدق، البتة، بأنها قد فارقتني. ولا أصدق أنها قد فارقت الحياة، ورحلت إلى الأبد. لأنها معي في كل ثانية. صوتها يرنّ في مسمعي، وطيفها أمام ناظري يداعب أجفاني الندية دائما، والكمد في فؤادي. أضف إلى كل ذلك وليدها الحبيب يوسف الذي لم أتمكن من اقناعه بموتها، أو جعله ينساها لأنه لايستطيع ذلك طالما أنه بمسيس الحاجة إليها، وإلى حنانها وحبها الدافئ. وطالما لاأستطيع إعادتها إليه (ولكني نظير ولدي يوسف قد أصبحت يتيما لأنني مثله بلا أهل. واولئك الذين هم أهلي... ينكروننني).

الفصل الثامن

الثماني عشرة سنة التي حملت في طياتها أحلام طفولتنا الجميلة قد انتهت نهاية مأساوية منذ ستة أشهر خلت. ففي صباح أحد أيام الجمعة والساعة تشير إلى الحادية عشرة دُعيتُ، بواسطة أحد التلاميذ، لمقابلة الكاهن أخيقار في الغرفة التي يعلم فيها طلابه اللغة الآشورية الفصحى. في تلك المدرسة التي شُيّدت برأسمال إستير. وهناك، وفي تلك الغرفة بالذات، وبحضور الكاهن أخيقار، التقيت السيد يوليوس الشقيق الوحيد لزوجتي إستير وذلك للمرة الأولى بعد ثمانية عشر عاما، وبدون موعد أو انتظار. التقيت يوليوس الذي كان يودّ لقائي لأني أولاً، كما ادعى، واحد من أبناء قريته ديلامّا، وثانياً لكوني جاره تربطه بي أواصر صداقة حميمة. ولكنه أنكر معرفته

بإستير. وادعى، أيضاً، بأنه في غاية الشوق إلى رؤيتي، ولابد له من لقائي لأنه يمر في خابورية وهو في طريقه إلى قريتنا ديلامّا.

بكل صفاء ونقاوة وطهر قلبه الكهنوتي صدّق الكاهن أخيقار أكاذيب يوليوس صياد حياة أخته التي لوثت اسمهم الشريف بالعار وهم السراة الأثرياء. وبكل سرور، وعلى الفور، أرسل أحد تلاميذه يستدعيني للحضور إلى غرفته من أجل ملاقاة أحد أصدقائي وجيراني الذي سيسافر إلى قرية ديلامّا، تلك القرية التي ولدتُ فيها، وترعرعت بين ظهرانيها. إلى تلك القرية التي يعيش فيها والدي الذي ينتظر بفارغ الصبر جواباً مني للاطمئنان عليّ، ومعرفة أحوالي.

كان الكاهن أخيقار جذلان بظنونه حيث اعتقد بأنه سيرغمني على كتابة رسالة إلى والدي تحفل بعبارات الشوق والحنين مقرونة بالاعتذار لأُحمّلها هذا الشخص الذي يكن لنا الحب والوفاء (لم أذكر في مجمل أحاديثي السابقة بأني لم أكاتب أهلي وكذلك إستير وذلك منذ مغادرتنا قريتنا كعاشقين شقيين). لذا فقد كان يعتقد الكاهن العجوز بأن مساهمته في لقائي بهذا الشخص هي أعظم عمل خير يسديه لي.

وهكذا، وأنا في حيرة من أمري، أتساءل بيني وبين نفسي من ترى سيكون هذا الغريب الذي يستفسر عني وللمرة الأولى من وجودنا في خابوريّة. من سيكون؟. من لي في خابورية ليستفسر عني، وخاصة في المدرسة؟. ولماذا أثناء الدوام؟. ولربما رددت هذه الأسئلة بيني وبين نفسي بصوت مسموع لأن ذلك التلميذ، رسول الكاهن والذي كان يهرول أمامي، كان يقف بين الفينة

والأخرى خجلاً مرتعباً ليجيب:

- لا أعرف. لا أعرف من يكون يا أستاذ.

تدفق إلى نفسي خليط من مشاعر الدهشة والخوف وأنا أحث الخطى إلى غرفة الكاهن، ودخلت وأنا أحني رأسي مسلماً. وما أن وقع بصري على يوليوس حتى تهللتُ فرحاً بدون تفكير. ولكنه عندما رآني عاد القهقرى وجلاً خائفا، واصطبغ وجهه بالاحمرار، ثم تحول إلى أبيض باهت. وما لبث، بعد هنيهة، أن شحب لونه وصار ينظر إلي كأني ملاك الموت واقف فوق رأسه، أو كأن روحي قد انتصبت أمام ناظره. فبدأت، آنذاك، أرتعد بفعل حمى غريبة سرت في كياني، وأوقدت دمي وخيّل لي بأني معلق في الهواء. ثم اضطربت رؤيتي وغشي بصري، وصرت بلا حس أقترب، رويداً رويدا، من زائري هذا الذي ينظر إلي بعينين ملؤهما الحقد والضغينة والخوف وهو يتراجع كأني ساحر وهو أسيري المرتعب المسحور. و لم أسمع أو أعرف، في هذه الأثناء، ماذا قال أوفعل الكاهن و لكنني صحوت على ذاتي عندما ضمتني ذراعاه الضعيفتان وهو ينادي بصوته الرفيع المرتعش:

- إيشاي!.. إيشاي!..اسمع ...اسمع يا بني.

فتلمّس، آنذاك، طريقه إلى أعماق نفسي شعور بالخجل ما فتئ أن أثلج جبهتي بعرق بارد انحدر إلى مقلتي وأعمى بصيرة هيجاني وانفعالي. فجففت جبيني بمنديلي وتحدثتُ إلى الكاهن وأنا خجل جداً بتصرفي المشين. وطلبت متمنياً بلسان ضميري أن تنشق الأرض لأغور في أعماقها.

تهلل وجه ذلك الكاهن الذي كان يقف بيننا وقوف الأب بين ولديه المخبولين

المفترسين حين قلت:

- هذا الشخص يدعى يوليوس، وهو شقيق إستير.

ولكن وجه الكاهن ما لبث أن تغيّر و صار في احمرار عرف الديك لدى سماعه مني هذا التصريح المباغت. ومدّ إصبعه بغضب صوب عين يوليوس وهو يدمدم بأعلى صوته باعثاً الرهبة في أوصال تلاميذه الذين بهتوا لهول هذا المشهد، ووقفوا يراقبوننا باستغراب كأننا مصارعان هائجان في الحلبة بينما أستاذهم وهو حكم هذه المباراة الشاذة يصيح:

- فه .. فه . ما هذا؟. أما يكفي الكذابون والقتلة تلوثهم بالخزي والعار؟

وفيما كان يسترسل في الحديث طغى صوتي الجهوري على صوته الرقيق حين مددت يدي نحو يوليوس قائلاً:

- السلام عليك يا أخي. أنا مسرور ومبتهج جداً بلقائك، وسنستقبلك ضيفاً عزيزاً لتروي لنا أوضاع أهلنا الذين أغضبناهم بسبب ما اقترفنا من الأخطاء والذنوب.

بدأ وجه يوليوس يعود إلى تألقه، ويصطبغ بحمرة الخجل في الوقت الذي كنا نقترب من بعضنا رويداً رويدا كأننا قد التقينا في حلم، واستفقنا وإذ بتدانينا حقيقة لامراء فيها.

وبعد أن تصافحنا كغريمين قد تصالحا طلب الكاهن إلى تلاميذه أن يلتزموا الصمت فيما سمعوا ورأوا. وخرجنا من تلك الغرفة قاصدين منزلنا حيث إستير التي من المحال أن يراود فكرها حينذاك لقاء أخيها يوليوس شخصيا.

عندما دخلت البيت وجدت إستير، كعادتها، جالسة تغـزل وتدنـدن لنفسـها بأغنيتها المعهودة (أواه يابيتي أمسيتُ بعيدة عنكَ). فخاطبتها قائلاً:

- انهضي يا إستير، لدينا ضيوف.

لما وقع بصرها على الكاهن أخيقار ألقت بمغزلها، علـى الفـور ونهضـت لتقبيل يده. و بدون أن ترفع رأسها وتلقي بنظرة إلى وجه يوليوس قالت:

- تفضل بالجلوس يا شماس دانيال. إذ اعتقـدت بـأن يوليـوس هـو الشماس دانيال الذي كان يأتي لزيارتنا برفقة الكاهن باستمرار .

دلفتْ إلى المطبخ، وخرجت تحمل صينية ملأى بالعنب والتفاح بينمـا كـان يوليوس لم يزل واقفاً ونحن نتبادل النظرات ونضحك في سـرنا. وقبـل أن تضع الصينية على المائدة قالت وهامتها مطأطأة: اعذروني. ثم رفعت عينيها قليلاً وبدون أن تنظر إلى وجه أخيها الواقف بصمت وقالت ثانيـة: لمـاذا لا تجلس يا شمّا... وسكتت فجأة. تذكرت يوليوس الذي ما لبث أن نادى باسمها إستير ... فانفجر صوتها من الأعماق وجلجل في أسماعنا مدوياً في أنحـاء البيت وهي تهتف: يوليوس!... وارتطمت الصينية من يدها علـى الأرض، وانطلقت لترتمي عليه وتضمه إلى صدرها، وتحتضنه بين ذراعيهـا وتقبلـه بشوق ما بعده شوق، وحبّ لاحدود له. في حين كان يوليوس يـرصّ فكيـه على بعضهما بقوة وكأنه يريد طحن نواجذه في فمه، وعلى وجهـه يتنـاوب الشحوب والاحمرار، والعرق ينضح من جبينه وهي متعلقـة بعنقـه تبكـي وتضحك في آن واحد. تقبّله وتقضم خدّيه، وتمسح وجهها بوجهـه ولا تنـي تردد: يوليوس! حياتي، قرّة عيني، أنا فداك يا أخي.

ولكن يوليوس ظلّ منتصباً كوتد بلا حراك. جبينه مقطب، وعيناه نصف مغمضتين وهو يمعن النظر إلى أسفل متأملاً أخته كأنه لايعرفها على الإطلاق، بينما هي تستجدي منه العطف والمحبة وهو يضنّ بهما عليها. أما الكاهن أخيقار فقد أضرم كل نيران العالم في قلبي حين لمحته ويده مندسّة في ثنايا لحيته البيضاء وقد نسيها كذلك بينما قطرات الدمع تتسلل من مقلتيه وتتدحرج على خديه الحمراوين المكللين بجلال الشيخوخة الواهنة.

ابتداءً من يوم الجمعة ذاك منحنا التلاميذ عطلة استثنائية، وقمنا بتوجيه الدعوات الرسمية إلى العديد من السادة ذوي الشوارب الفضية، وإلى العديد من النساء الفاضلات بالإضافة إلى تلاميذ مدرستنا لحضور حفلة ليلية تقام على شرف ضيفنا العزيز يوليوس، وابتهاجاً بلقاء الشقيقين وذلك مساء يوم الأحد في باحة المدرسة.

منذ يوم الجمعة وحتى يوم الأحد تحدثنا إلى يوليوس ليل نهار. شرحنا له، أنا وإستير، مجمل أوضاعنا. وطرحنا عليه ألف سؤال وسؤال. لكنه ظل صامتاً لا يتكلم إلا نادراً وباقتضاب بالغ. وبقي يصغي ببلاهة كأنه فاقد رشده، وبالكاد استطعنا أن نعرف منه بأن والدتي قد انتقلت إلى جوار ربها. أخي قد تزوج ورزق بثلاثة أطفال. أبي قد شاخ كثيراً ولا زال يعمل لدى أبيه اسحق. وسارة (أم يوليوس) قد توفيت أيضا. أما هو فلم يتزوج بعد. لقد خرج من ديلاما بعدنا بسنتين باحثاً عنا في كل مكان. وقد سبق له أن مرّ بخابورية مرات عديدة ولكن لم يغامره الشك، يوماً، بأننا نقطن هنا فيها. بحث عنا كثيراً دون جدوى ليقتلنا وينتقم لشرفه المثلوم. لكنه غير رأيه الآن،

كلياً، وفرح كثيراً بلقائنا، وقرر المكوث معنا حتى نتجهز للعودة إلى قريتنا، ونعتذر طالبين الصفح من أهلنا الذين لا زالوا على قيد الحياة .

هذا كل ما رواه لنا يوليوس بصوت خفيض مرتعش يشوبه البرود خلال ثلاثة أيام.

رغم أن الحفلة كانت صاخبة جداً، ونشوة الخمر قد صعدت إلى الرؤوس، ودبّت في ثنايا الجماجم. ودبّكَ الشباب والبنات كثيرا. ولكنني، رغم كل ذلك، بقيتُ مرتاباً بيوليوس وأتوجس منه خيفة لأن هيئته وكلامه لم يبعثا الطمأنينة في نفسي، بل دفعاني إلى حمل سكين طفولتي تحت حزامي تحسباً للطوارئ، وإلى أن أكون يقظاً وحذراً من يوليوس على إستير. وانتهت الحفلة، أخيراً، وانفضّ الجمع وذهب كل إلى بيته، وبقينا مكدودين وقد هدّ التعب قوانا من جراء الخدمة التي أديناها لضيوفنا.

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل آوينا إلى فراشنا بعد أن حملنا يوليوس إلى مضجعه وهو يترنح بعد أن أخذ السكر منه كل مأخذ، وقد استسلم للنوم قبل أن نستطيع خلع ملابسه وتجريده من سلاحه.

واضطجعت، بدوري، متقلداً سلاحي وبكامل لباسي. ولفّت استير ذراعها حول رقبة يوسف ونامت بعد أن قطفت عدة قبلات من وجه أخيها السكران.

استلقيت في فراشي وظلت عيناي تتأملان النجوم، وتراقبان انبلاج الفجر. ولكن بعد ساعة على ما أظن، وبدون إرادتي، اتكأت على مقلتي غفوة ظالمة سلبت وعيي. وفي ساحة دارنا ذات السور الشامخ، وتحت الأفق الناصع حملني النوم على جناحه إلى جزر الأحلام لأستفيق جافلا مرتعبا على صوت

ولولة ابني يوسف، ظاناً أن طبلة أذني قد انشقت، إذ كان يصرخ ويصيح: ماما... ماما. فنهضت كالمجنون، وحملته بين يديّ وسألته عما دهاه؟.

وفجأة تناهى لسمعي صوت إستير كأنه خارج من قعر بئر سحيقة وهي تنادي: إيـ . شـ شـ. ا.ي. وارتطم بصري بيوليوس وقد وضع ركبته فوق صدرها، ويده اليمنى تعلو وتهبط بقوة وشراسة. سمعت صوتها المتحشرج، ثانية، يئن منادياً: إيـ. يـ. يـ. يـ. شـ. شـ. ا.ي.

رفعت ابني عالياً وقذفته على رأس يوليوس بكل ما أوتيت، ساعتذاك، من قوة جسدية مجنونة. وامتشقت سكيني بأسرع من ومض البرق، من تحت حزامي، ووثبت عليه كما يثب الذئب على الحمل. وبعد لحظة عاد إلي رشدي حين وجدت رأس يوليوس، بين يدي، وأنا أرفعه وأخبط به الأرض مرات ومرات، وأكيل له الرفسات والركلات كأنني أتصارع مع ذلك الرأس المقطوع لوحده.

لم أجد نفسي، بعدها، إلا وأنا مكبّل بسواعد جيراننا الكثيرين.

وعندما كانوا يمسحون الدم من على يديّ ووجهي وأنا أركع أمام جثة إستير، وقد شاهدت وجهها مطموساً في دم عنقها، وثيابها مصبوغة بالدم. ورأيت، كذلك، ولدي يوسف ملقياً على وجهه عند قدميها أغمي عليّ. أجل لقد أغمي علي ولكن ليس لفترة وجيزة أو محدودة، وإنما إلى أن تستقرّ روحي بجانب روح إستير. لقد أغمي على قلبي، وفقدت الوعي و الحس والشعور، وأصابني مسّ من الجنون. لقد أصبحت صورة بلا كيان تتعفّر في ظلم وجور الحياة. أما العذاب الذي نحت بإسفين القدر في صميم قلبي فقد حوّل

جسمي إلى مستودع أحزان.

الفصل التاسع

في ذات الوقت الذي كان يقتل الأخ أخته، وينتقم الصهر لزوجته من ابن حميه. وفي ذات الوقت الذي كان الأخ والأخت يموتان، معاً، ميتة شنيعة كانت ولولات ابني يوسف تطنّ عالياً في مسامع الجيران فيهرعون مذهولين إلى دارنا لاستطلاع الأمر. وقفز عدد منهم من فوق الحيطان في حين كنا نعربد حسب مشيئة الشيطان. وحينما استطاع البعض أن يدركوننا كان كل شيء قد انقضى، واستير قد لفظت أنفاسها وفارقتها الحياة، ورأس يوليوس

تتقاذفه يدي وقدمي.

ربما كان بإمكان أولئك الجيران، الذين وصلوا أولا، أن يلحقوا بنا ويتداركوا الأمر، وينقذوا حياة يوليوس من بين يدي الفتاكتين. ولكنهم لم يأتوا بحركة بل انصعقوا لهول المشهد، وظلوا يزعقون في أماكنهم كأنهم مشدودون إلى الأرض وقد سرّني موقفهم ذاك كثيرا. وأنا الآن سعيد جدا لأني قد حطمت رأس يوليوس بعد استئصاله من جسده وسحقه بقدمي، حيث مارست به لعبة كرة القدم من شدّة غيظي وحنقي عليه. ويا ليتني الآن، أيضا، كنت أخرط عينيه وأقلعهما من جمجمته. ولكن هيهات يشفي غليلي ذلك، ولاأظن بأن هناك نوعاً من التعذيب البربري كان يُمارس بحق يوليوس ويستطيع أن يطفئ حمم بركان الحقد المضطرم في أعماقي وإن كنت لا أنكر بأني، أنا أيضا، مجرم واستوجب العقوبة. ولكني قد نلت جزائي الذي يتمثل في هذا العذاب الذي ينهش قلبي. وقد اعتقدت بعد كل هذا الذي ألمّ بي بأن الله سيغفر لي عقوقي وجريمة القتل التي اقترفتها بحق مختطف حياة أم ولدي الوحيد. ولكن، رغم كل ذلك، فلازال الله يشمئز مني ويمقتني. لذلك فقد انقطع حبل رجائي واستسلمت، خانعاً، لمشيئة قدري وسأعيش متحملاً هذا العذاب الذي ليس له برء ولاشفاء.

رغم أني الآن أجترّ حزني وحيداً، ولكني أتقدم بخالص شكري وامتناني لمعظم أهالي قرية خابورية الذين شاركوني، وربما لازالوا يقاسمونني حتى الآن مصابي الجلل بفاجعتي بإستير التي نحرت سعادتي على مذبح موتها الرهيب.

بعد ثلاثة أيام من المأتم و الجنّاز الذي لا أستطيع تصويره أو التعبير عنه، والذي أقيم في كنيسة الرسول مار أدّاي، وارينا إستير التراب في باحة الكنيسة، وواريت قلبي في كفن الكآبة التي تشعل رأسي شيباً، وتنخر عظامي، وتهدّ كياني، وتضعف ذاكرتي. أما بالنسبة ليوليوس فقد أبى ضميري أن يُدفن بجانب أخته لذلك فقد سلّمنا جثمانه إلى قلب الأرض التي لا، ولن تشبع على مر الأجيال والدهور من ابتلاع بني الإنسان.

جلب الكاهن أخيقار، الذي تغلغل الهم والأسى في شغاف قلبه، لوحة كبيرة من المرمر ونقش عليها الآتي:

(هنا ترقد بسلام، بانتظار مخلّصنا، إستير بنت اسحق مالك قرية ديلاما الآشورية. ستبقى ذكراها عطرة وخالدة في مخيلة جميع أبناء خابورية الذين سيودعون هذا العالم عاجلاً أم آجلا. ومن أجل مسالكها الحميدة في حياتها، وعرفاناً بجميلها لما أسدته من جليل المساعدة في إقامة مدرسة لتعليم أبنائنا وبناتنا، فنحن مدينون لها بالتوسل إلى الله ليدخلها فسيح جنانه إلى جوار القديسين والأبرار الثاوين في ملكوت يسوع السرمدية إلى أبد الآبدين. آمين).

وعلى شاهد قبر يوليوس خُطت هذه الكلمات:

(هنا يستريح بغير اختياره وإرادته يوليوس بن اسحق مالك قرية ديلاما الذي لقي مصرعه على يد إيشاي بن داود، زوج إستير شقيقة يوليوس. لقد قتل أخته لأنها عقّت أهلها وأحبت إيشاي ومرّغت، بذلك، سمعتهم في العار. اغتيلت بعد مضي ثمانية عشر عاماً على جريمتها تلك، وذلك على يد أخيها الحاقد الذي نال جزاءه العادل. نرجو الغفران للقاتل).

كانت الأشهر الستة التي مرّت على مصرع إستير بالنسبة لي ستمائة عـــام، رغم أنه منذ ذلك اليوم الأسود وحتى اليوم الذي تركت فيه باب بيتنا موصداً إلى الأبد قد شملتني أخواتي بنات خابورية الفاضلات برعـــايتهن. وغمـــرن، كذلك، ولدي يوسف بعطفهن واهتمامهن المتزايد. ولكنني كنت طـــوال تلـــك الفترة معتصماً بقبرها وأنا أضمه وأبكي بحرقة ومرارة جابلاً ترابه بـــدمعي السخين في حين كان يوسف متعلقاً بي وهو يتلوع لفقدان أمه التي لن يجد لها مثيلاً على وجه هذه المعمورة.

عجز الكاهن أخيقار، ومعه أناس كثيرون، وهم يحاولون إقنـــاعي بـــالتحلي بالصبر، والتخلي عن هذا المأتم الرهيب والخارج عن الأصـــول. وحـــاولوا المستحيل لحملي على عدم البقاء والمكوث في منزلنا. ولكن ذلك كان أصعب من أن يطاق لأن إستير قد دُفنت بجوار ذلك المنزل، وأثرها لازال ماثلاً فيه، وأصداء صوتها ما برحت ترنّ في أرجائه. فكيف أستطيع نسيان ذلك كلـــه؟. لذلك فقد ضجروا واستسلموا أخيراً لليأس. ولكنهم، في الوقت ذاته، خافوا أن أصاب بالجنون أو أمرض، وكذلك ولدي. لهذا قرر الكاهن أخيقار بموافقـــة الجميع طردنا من خابورية.

وهكذا، نُفينا من خابورية في سبيل أن ألتقي بأهلي وأنسى إستير. أما أهلـــي فسألتقي بهم ولكن هيهات أنسى إستير حتى أستقر إلى جوارهـــا. وأنـــا الآن على أتم استعداد أن أموت مقتولاً، مجنوناً، غريقاً، مريضا وبأي طريقة كانت لا فرق لأني بمسيس الحاجة إلى الموت لأستريح من هذا العذاب المضني.

رغم أنهم جهزوا لنا جياداً لحمل أغراضنا إلـــى ديلامـــا، ولكنـــي رفضـــت

بإصرار حمل أي شيء سوى ولدي يوسف الذي سأحمله على ظهري، وهمّ إستر في قلبي. وقد جئت من خابورية إلى هنا مشيا على قدميّ، أتجول كغجري ضال، وكشقي يهصره الندم.

كان الفجر قد انبلج عندما أغلقت باب بيتنا، وألقيت بمفتاحه بكل قوتي في نهر خابورية. وبقي بيتنا، ذلك، موصداً تعشش فيه أشباح الوحشة والصمت كأنه نصب تذكار الندامة في خابورية.

طفحت الدموع غزيرة من عينيّ، وعينيّ يوسف حين أمعنا النظر من فوق الروابي البعيدة إلى بيتنا المغلق كأننا شخصان منفيان من عدن خابورية.

قبل أن نغادر البلدة أودعت الكاهن أخيقار رسالة ألقيتها تحت باب منزله و كتبت فيها:

(أبي الحبيب الكاهن أخيقار المحترم.

نفسي حزينة حتى الموت لمغادرتي خابورية، وفراقي عنك وعن رعاياك. تفضلوا بقبول أسمى آيات امتناني آملاً أن تتذكروننا في صلواتكم. أتوسل إليك أن تشمل قبر إستير برعايتك، وتلقي نظرة عطف على بيتنا المغلق الذي خلّفناه منتصباً بشموخ. ولي وطيد الأمل بأن المدرسة ستتقدم باستمرار. سلامي وقبلاتي وتحيات ولدي يوسف إلى جميع التلاميذ وأوليائهم.

خادمك المطيع وابنك البار إيشاي.)

وهكذا، ودعنا خابورية كأننا في حلم. عشنا فيها ثمانية عشر عاماً بطمأنينة وسعادة، ولكننا كلما ابتعدنا عنها فنحن سنقترب منها أكثر فأكثر، وكلما مرّت الأيام كلما اختمرت ذكراها في قلوبنا، وعبق شذاها في مخيلتنا، وبقيت

صورة أهلها ماثلة في أذهاننا حتى انطواء العمر.

انتهيت الآن من رواية قصتي كما حدثت حتى هذه اللحظة وذلك في بيت هذا العجوز الذي ما انفك، منذ الوهلة الأولى، يرنو إلى وجهي بعينين دامعتين في حين كانت زوجته تمسح أنفها، بين الحين والآخر، بخرقة متّسخة وهي تختنق بالنشيج. أما يوسف فقد كان مستسلماً للنوم ورأسه على ركبتها، وابنتها هيوي تطير على جناح الأحلام وهي تضم قطتها على صدرها. وأنا أذرع الغرفة جيئة وذهاباً مثقلاً بالهموم والأحزان كأن مجريات هذه القصة قد حدثت لتوها. نهض العجوز بتثاقل وقال متأوهاً:

– ليتك يا بني لم تنزل ضيفاً علينا، ويا ليتني لم أطلب منك سرد قصتك حتى لا أسمع مثل هذه الوقائع المؤلمة التي تحدث للإنسان في هذا العالم بينما هو لا يستحقها على الإطلاق. ولا يستحق مثل هذا الجزاء وهذه النكبات والدواهي. ثم مسح عينيه بيده كطفل صغير، ووضع مرفقه على حافة النافذة وقال:

– ها قد بزغ الفجر ومن الأفضل لك أن تنام، الآن، لتأخذ قسطاً من الراحة و تستريح من عنائك.

فشكرته كثيراً، وأكدت له بأني لا أستطيع النوم، وأصررت على أنه يجب أن نرحل الآن و بدون تلكؤ.

الفصل العاشر

بدأت خيوط الشمس تتسلل من نافذة منزل ذلك العجوز وتطرد أشباح الظلمة، وتبتلع ضوء السراج المعلّق على العمود القائم في وسط الغرفة.

اعتذر العجوز راجياً أن اسمح له بأن يرسل أبقاره وماشيته إلى المرعى ويعود حالاً. وطلب إلى حبيبته العجوز أن تحضر مائدة الفطور. أما أنا فقد

بدأت ألعن حظي العاثر، وألعن هذا المسمار الناتئ في فردة حـــذائي والـــذي فتح ثغرة عميقة في عقب قدمي، ولكني تمكنت بعد فترة دأب وعناء أن أقتلعه بأسناني وإن كنت على يقين بأن اثنين منهما قد ارتجّا، ولكن حتى لو ســـقطا لما اهتممت لذلك في كثير أم قليل.

وقفت أمام عتبة البيت أتأمل ابني يوسف، وابنة هذا العجوز التي كانت جالسة على حافة معلف وهي تهز رجليها، وهما ملتصقان يتبادلان الحديث كأنهمـــا صنوان، وإن لم يكونا يشبهان بعضهما من ناحية الشكل والصورة ولكنهمـــا أعادا لي ذكرى تلك الأيام الغوالي التي كنت ألعب فيها مع إستير، ونتجـــول معاً بين الحدائق و البساتين. هي ابنة أثرياء وأنا ابن فقراء ولكـــن يجمعنـــا هدف واحد هو الحب. والحق أقول بأن يوسف وهيوي مثّلا وجسّدا، في تلك اللحظة، أمام ناظري صورة طفولتي، ورأيت ذاتي في مرآة موقفهما ذاك وقد كبرت وعلقت في شباك حب إستير. ثم وأنا أتطاول بالضـــرب علـــى أمـــي وأبي، وبعدها أختطف إستير من أهلها وأهجر أهلي وقريتي. وكيف حللنا بين الخوف والتعب والفرح في بيت گوليات. وكيف تصارعنا مع قاطعي الطريق وصرعناهما. وكيف وصلنا إلى خابورية وحللنا فيها. وأيام عملنا في مدرسة خابورية، وأولئك التلاميذ وأوليائهم، ثم الكـــاهن أخيقـــار ويوليـــوس وهمـــا ينتظرانني في تلك الغرفة، والحفلة التي أقيمت على شرف يوليوس وإســـتير. وتلك الليلة اللعينة، وانبلاج الفجر الرهيب علـــى مصـــرع إســـتير ومقتـــل يوليوس. ومرأى بيتنا المغلق والواقف كطلل كئيب خاوٍ من أثر وقع خطواتنا وأحاديثنا. ومفتاح ذلك البيت وهو يغوص في مياه نهر خابوريـــة المتدفقـــة.

وبينما أنا سارح في مرآة تصوراتي وأحلامي تلاشت هذه الرؤيا الحقيقية من أمام بصري فجأة حين هز العجوز كتفي طالباً إليّ الدخول لتناول الفطور. فمسحت عيني بكمّ معطفي. وعندما دلفت عبر الباب شاهدت يوسف وهيوي بكثب بعضهما وهما يصنعان شطائر من الخبز والجبن ويقدمانها لبعضهما بكل محبة واحترام، وبحب ملائكي مقدّس قد فاتنا قطاره، وهيهات يقع مثيله في يد شيخوختنا، ويجود به الدهر ثانية.

وبينما أنا على مائدة الفطور تناهى لسمعي صوت عقلي يوشوش بحسرة: (إن الأيام التي انصرمت من عمرنا لم تكن إلا حلماً لن نراه ثانية، وذكرى أليمة لانطلاقتنا من هذا الجسد الصغير التافه. كم تهبنا تلك الأيام الماضية حكمة وتجارب، وكم هي مثال وعبرة أمام أعيننا التي لا تخجل ولا تشبع ولا تبصر، مع العلم أنها مفتوحة تتراءى أمامها الأشياء والأفعال. وهكذا، تمضي الأيام كغيوم تذريها الرياح من فوق رؤوسنا وليس بالمستطاع ردّها أو إلجامها في حين نظل نتأملها بعين كليلة، وقلب محترق، وجسم منهدٍّ، وروح حزينة. معذبون مثقلون بالآلام والهموم التي خلعتنا من عروش طفولتنا الزاهية. آه ... مهما تسلقنا رابية الحياة العالية فلابدّ أن نتزحلق، أخيراً، من علياء جهادنا وتبوء جميع محاولاتنا السابقة بالفشل، وتمحوها يد الزمن من لوحة الحياة، وتنساها الأجيال القادمة التي تأتي مثلنا لتجاهد زمناً وتناضل وتكافح. وأخيراً ننتهي إلى الزوال، وتضم الأرض رفاتنا، ونعود إلى التراب الذي جبلنا منه. آه.....كم نلهو ونعربد ونحن دمية قميئة يلهو بها القدر تحت قبة السماء المزينة بالشمس، والمزخرفة بالكواكب والنجوم التي تفضح

أعمالنا أمام عين خالقنا الذي يستهزئ بنا، ثم يغفر خطايانا بينما نحن نعتقد بأننا عظماء، ونتباهى بقدراتنا وإمكانياتنا في حين لا يتعدّى كوننا حبة خردل متناهية الصغر في شجرة الكون، وعلى فنن الحياة التي وُهبت لنا بغير اختيارنا وسُلبت منا بغير إرادتنا).

بعد أن تناولنا الفطور، وزُوّدنا بما نحتاجه من الطعام في طريقنا. لثمنا يد الشيخ مودّعين إياه، بينما أرى في شخصه صورة أبي في حين كانت هيوي تبكي خلف يوسف بكاءً مُراً يقطع نياط القلوب. بعد ذلك غادرنا هذه القرية، أيضا، وتابعنا سيرنا على الطريق المؤدية إلى قريتنا العتيدة والتليدة (ديلامّا) ويوسف يتوسل إليَّ بحرارة أن نعود القهقرى ونظل في بيت ذلك العجوز ليلعب مع هيوي التي لا، ولن يجد لها مثيلاً أينما حللنا. فعصرت يده في يدي و قلت وأنا أكذب عليه:

- أجل ... أجل سنعود (ولكن لابدّ من أن نرحل).

وهكذا، افترقنا عن هذين العجوزين، وافترق يوسف عن صديقته الجديدة والعزيزة هيوي. وما لبث أن بدأ يرقص على قدم واحدة ويده في يدي. وينحني، حينا، ليلتقط بعض الحصى يضعها في جيبه وهو يقول:

- أبي! إن هذه الحصاة تشبه صورة إنسان، وهذه الأخرى تشبه أنف والدة هيوي.

وأحياناً أخرى يتساءل:

- أبي! متى سنلتقي بأمي؟. ومتى سنفتح باب بيتنا المغلق؟. ومتى سنعود إلى بيت هيوي ثانية؟. وكان يعلّل نفسه بالآمال وهو يصدّق

أجوبتي الخادعة.

عندما وصلنا إلى سفح رابية، وبدأنا تسلّقها أضرم يوسف جمرات اللوعة في مهجتي حين لقيته، بعد مدة، وهو يلهث ورائي عاجزاً عن اللحاق بي، ولكن نفسه الأبية تأبى عليه التصريح بذلك فسألته:

- هل تعبت؟. فأجاب خجلاً:
- لا يا أبي، ولكني نعسان.

فحملته على ظهري وقد تملكني العجب. فبالرغم من أن ولدي هذا لا يتجاوز ثماني سنين ولكنه عزيز النفس، تقطر من روحه الأنفة والشموخ والكبرياء، ولاتطاوعه نفسه السامية أن يعترف لي بأنه تعب، وغير قادر على صعود الرابية.

حين أنزلته عن ظهري فوق قمة تلك الربوة سأل:

- أبي! لماذا تكون أنت رجلا وأنا طفل؟. لماذا أنت كبير وأنا صغير؟. كيف تستطيع حملي والصعود بي وأنا عاجز حتى عن الصعود؟. متى سأصبح كبيرا؟. متى سأصبح قوياً؟. متى سأتمكن من قراءة الكتب الضخمة مثلك ومثل أمي؟.

فأجبت على أسئلته التي لن تنتهي:

- اسمع يا بني! لقد كان كل الرجال مثلك أولاً، بل أصغر منك ولكنهم كبروا مع مرور الأيام والسنين. وأنت، أيضا، ستكبر وتصبح قوياً مثلي وذلك عندما يمر على تخمّرك في خابية هذه الحياة تسعة وثلاثون عاما. حينذاك، ستتمكن من قراءة كتب كثيرة وكبيرة.

ونصيحتي إليك أن تكثر من مطالعة الكتب، وتدمن قراءتها لأنها مترعة بالحكم والمواعظ، والعبر والقصص العلمية، وتواريخ العظماء الراحلين. كما أنها تشعّ نوراً وضّاء في أرجاء العقل المظلم. وحين ستكبر سترى الدنيا كبيرة ملأى برجال عظام. وستجد بأن الحياة حلوة حيناً، ومرة حيناً آخر. ستكون، تارة، جيداً فترى كل شيء جيداً. وتارة أخرى سيئاً فيتمثل لك السوء في كل شيء، وفي كل إنسان. ولكن ليس في العالم سوء قائم بذاته وإنما نحن السيئون والجيدون. والناس الجيدون هم أنفسهم السيئون وكذلك العكس. محتّم عليك، يا بني، أن تسعد حيناً وتبكي حيناً آخر، ولكن ينبغي عليك أن لا تتعجّل وتستبق الأمور لأنك حتماً ستكبر بدون أن تدري كيف كبرت إذا كتبت لك الحياة. أما إذا متّ فستنام نوماً عميقاً ليس بمقدور إنسان أن يوقظك منه لأنه لا يتمكن من إيقاظك سوى يسوع المسيح المخلّص، وذلك في يوم القيامة حيث ستبعث حياً من جديد لأننا جميعاً أرواح تعيش في هياكل اللحم والدم، وعندما تنطلق روحنا من جسدنا سيبقى جسدنا لا شيء لأننا في البدء خُلقنا من لا شيء، ونعود ثانية إلى اللا شيء. إذا كنتَ، يا بني، واعياً ونشيطاً ستصبح حكيماً وثرياً، وإذا لم تنتبه إلى مستقبلك، وتهتم به ستقضي عمرك فقيراً معدماً تشبه اللاشيء خاصة إذا سخرت من الفرص الثمينة المتاحة والسانحة لك. واعلم جيداً بأن جناح العقل هو المال. إذا كنت حكيماً و فقيراً سيظل عقلك يراوح في مكانه ولا تستطيع

الانطلاق أبداً، وإذا طمحتَ إلى أن يصير عمرك تسعة وثلاثين عاماً بعد ساعتين لن يتحقق لك ذلك مطلقاً، وسيبقى كما هو أي ثماني سنوات لاغير. ولكن، انتظر، واصبر، وراقب، واسمع، ثم اختر، بعد ذلك، بتأنٍ وروية. ستنمو وتصبح كبيراً وقوياً كأبيك ولكن ليس مثله حكيماً.

ها... ها. ضحكت على نفسي ساخراً من نفسي لأني قد تحدثت إليه كثيراً فلم يستوعب ما قلت، بل بدأ يتهيّب مني عندما بدأ صوتي يخشوشن في ذلك الفراغ المترامي على قمة الرابية التي صقلتها رياح الدهور.

كان يوسف يتلهّى، خلال ذلك، بقضم تفاحة كنت قد ناولتها إياه وهو جالس على كتفي الأيمن، وذراعه اليسرى ملتفة حول عنقي. وانشغل تفكيره بنكهة التفاحة ومذاقها، وصوت مضغها ونسي أجوبتي عن أسئلته الكثيرة. ولكنه كان يترجّل، بين الفينة والفينة، ليهرول، هنا وهناك، ويلملم الأزهار البرية ذات الألوان الزاهية ومن ثم يصعد، ثانية، على ظهري. وهكذا، قطعنا شوطاً بعيداً من الطريق حتى حان أوان الأصيل حين امتشقت الشمس سيف الغروب لتنتحر على صخرة الأفق، وتصبغ جماجم الروابي والتلال بدمها القاني، وتنشر وشاح جمالها المنمّق بالسحر على الأشجار والحقول على امتداد البصر. في حين كنا جالسين على العشب الرطيب نزدرد الطعام الذي زودنا به الشيخ الكريم وقد تملكتني الحيرة، آنذاك، وأنا أحاول تفسير الأسباب الكامنة وراء خصوبة هذه الأرض، وأتعجب لتقلبات حياة الإنسان وتبدله من حال إلى حال. ولا أصدّق، البتة، بأن هناك إنسان سعيد في هذه الدنيا

الموغلة في القدم، والتي تزداد جمالاً وبهاء كلما عتقت أكثر فأكثر. أما يوسف فقد كان يتملكه العجب من شدة بياض بعض الحمير، وتخلب لبّه بعض الجياد الجامحة ويتساءل بدهشة واستغراب:

- لماذا هي أجمل من الحمير؟. ولماذا تكون الأغنام، هكذا، وديعة وجبانة؟.

إضافة إلى كل ماخلب ألبابنا من أسرار الطبيعة ومباهجها وهباتها كانت رؤية أحد رعاة الغنم وهو ينفخ في نايه ويلعب بأنامله الرشيقة على حقوه، ويرسل لحناً شجياً تتردّد أصداءه في جنبات الوادي، وفي أرجاء أفئدتنا. ولربما كان ذلك اللحن المؤسي يتغلغل في قرارة مهج تلك الأغنام التي تقيم بصمتها وسكوتها حفلة تأبين على أرواح إخوتها التي تُنحر في مذبحة الجزّارين بلا رحمة ولا شفقة. ولكن ذلك الناي الحزين كان يبكي بحرقة ومرارة ، أو ربما كان يشفي بنواحه لواعج قلب ذلك الراعي الذي ينفخ فيه.

انقطع نواح ذلك الناي عندما دنوت من مبكيه، وسألته عن الطريق التي يجب أن نسلكها إلى ديلامّا؟. فأجاب بهدوء وبدون استغراب:

- آ.... ديلاما؟. إذا سريتم الليل بطوله ستصلون إلى هنالك مع انبلاج الصبح. ولكن الأفضل أن تتفضلوا وتمكثوا عندنا الليلة لتنطلقوا غداة غد، وستبلغون ديلاما حتماً عند الغروب.

اعتذرت عن البقاء شاكراً له حسن ضيافته وسألته:

-هل هذه الأغنام هي ملكه أم ملك غيره؟. فأجاب خجلا:

-لا . ليست ملكي، وإنما هي ملك مولاي گوليات. فاستفسرت منه عن أحوال گوليات، وماذا صار لديه من أولاد؟. وأعلمته بأن لي به معرفة وصحبة جيدة. فاستغرب متسائلا:

-من أين أعرف گوليات المارد؟. وأضاف إن كان گوليات صاحبك حقاً فسأبشرك بأن الله قد رزقه بأربعة ذكور وبنت واحدة، بالإضافة إلى مائتي رأس غنم، وعشرة ثيران، وثماني أفراس. فتوسلت إلى هذا الراعي الذي كان يدنو من هاوية الشيخوخة أن يصبر قليلاً حتى أكتب رسالة إلى مولاه. وهكذا بدأت أكتب إلى صاحبي گوليات:

(سيدي گوليات العظيم! ...

أنا خادمك إيشاي. ذلك الشخص الذي نزل ضيفاً عليك قبل ثمانية عشر عاماً بصحبة استير. أنا لا زلت أذكرك جيداً ولن أنساك مدى الحياة. آسف أن أنعي إليك مصرع استير على يد أخيها الحاقد يوليوس قبل ستة أشهر في خابورية، وربما قد تسرّ إذا بلّغتك بأني قد ثأرت لأستير مباشرة وقتلت يوليوس. لقد استقرّينا في خابورية بمساعدة حميك الكاهن أخيقار، منذ ذلك اليوم الذي ودعناك على قمة الرابية، إلى ما قبل ثلاثة أيام. لقد منّ الله علينا بطفل وحيد أسميناه (يوسف) وعمره الآن ثماني سنين. وتركت بيتنا هناك فارغا وموصدا. ونحن، الآن، في طريقنا إلى ديلاما لألثم يد أبي إن كان لا يزال حياً. أنا متأسف جداً لعدم تمكّني من زيارتك الآن، ربما سأعود إليك وأقاسمك العيش كواحد من بنيك، وأموت في بيتك العامر. سلامي وسلام

ولدي يوسف إلى أم أولادك السيدة الفاضلة صوريّا. أنا واثق بـــأنكم لا زلـــتم تتذكروننني كما أذكركم. أنا مدين لك بالشكر مدى الحياة، وإلى أبد الآبدين.
ابنك البار إيشاي).

سلّمت الرسالة ليد الراعي الذي دسّها، على الفور، في حقيبته. وقلت له:
-أرجو أن تتفضّل بتسليمها للسيد گوليات. فأحنى رأسه قليلاً ثم رفعه وقال:
-أقسم لك برأس البطريرك بأني سأسلّم رسالتك إلى ســـيدي گوليـــات فـــور وصولنا إلى البيت. أما بالنسبة للطريق، فإذا كنت تجهلها فخذ يمينـــك. خـــذ يمين الطريق، دائماً، لأنها أكثر راحة وأمانا. فصـــافحته شـــاكراً ومودعـــاً. فهرول راكضاً يتبعه أولاده ليصلوا إلى الأغنام التي سرحت بعيداً عنا.
عندما استقر يوسف على ظهري، ثانية، بدأ يطرح أسئلته الكثيرة من جديـــد قائلا:
-أبي إلى أين سنذهب؟. متى سنصل إلى بيت هيوي؟. متى ســـتأتي أمـــي؟. لماذا نظل، هكذا، ندور مثل الغجر؟. متى سنستقر في بيتنا الخاص؟. أين هو بيتنا؟. لماذا تركناه؟. لماذا نحن بلا بيت؟. فأجبته:
-بنيّ ! كان لنا بيت ولكننا بقينا، الآن، بلا بيت. سنظل، هكذا، نـــدور حتـــى نهتدي. وبقدر ما ينقصنا سنطلب إلى الله. آنذاك ستأتي أمك إلى بيتنا، وكذلك صديقتك هيوي. ولكن يجب أن ندور ونشقى، كثيرا، لنتمكن مـــن الحصـــول على بيت يأوينا، ويحفظ ويصون شرفنا وكرامتنا. أما الآن فينبغي عليـــك أن تنام لتستريح لأنك صغير على مثل هذه الأمور، وأنا كفيل بأن أجد لك مأوى

أبدياً. والآن، لا تطرح علي أي سؤال. أما إذا أردت أن تسأل فاسأل الله وهو سيجيب على كل أسئلتك.

–أين هو الله ؟. كم هو بعيد عنا؟. سأل ولدي. فأجبته قائلاً:

– هو قريب جداً لأنه جالس في مكانه ويرانا، بينما نحن لا نستطيع أن نـــراه أو نلمسه. ولكن إذا أردت التحدث إليه فتحدث إليه في سرك، وتوســـل إليـــه واسأله فهو لا بد سيعطيك ويحقق مرامك، ولكنه لن يجيبك جهراً وعلانية.

بعد دقائق معدودات غفا على ظهري بدون أن يطرح أي سؤال جديد.

الفصل الحادي عشر

كان يوسف راقداً على ظهري كأنه حِمل بلا حياة، ولكن أنفاسه الدافئة على رقبتي ما كانت أبدا تدعني أشعر بالتعب بالرغم من أني قد سرت أكثر من أربع ساعات بدون توقف، بينما كان ضوء البدر يفضحني ويشعرني بالخجل من نفسي لأن يوسف بلا أم وأنا بلا بيت. أمضي وأطوف، هنا وهناك، منذ ذلك اليوم الذي سلبني الله بيتي حين سلب عقلي، وفرطت بمستقبلي. لقد سئمت التفكير بمصابي وشقائي، وخزيي وعاري لأن مستقبلي قد شارف على النهاية المأساوية. ولكن (يا رب) ماذا بشأن ولدي؟. أين سيكون مستقبله؟. وكيف سيتحقق؟. هل ترى سيذكر أبيه؟. هل سيتكلم لغة أمه؟. ولكن تلاشت كل هذه الهواجس والأفكار التي تؤرقني، وتميتني حينما تناهى لسمعي صوت غناء. لقد كان صوت رجل يقود عربة وهو يغني بذكرى أمه الطريحة في فراش الموت، وليس لديه مال ليبتاع قطعة أرض يواري أمه الحبيبة التراب حين تموت. أين سيمضي؟. ماذا سيفعل؟. لمن يشتكي؟. من سيعطف عليه ويأخذه بحنانه؟. بهذه المعاني كان يختم كل مقطع من أغنيته.

كان يجرّ تلك العربة حصان خمري اللون مكدود. وكانت العربة مليئة بجلود الغنم، ويجلس إلى جوار الحوذيّ المغني رجل صامت هائل الجثة أشبه بقطعة خشب لاحياة فيها وإن كان هيكله هيكل بني آدم.

توقف الحوذي عن الغناء عندما لمحنا على الطريق ثم بادرنا بالسؤال قائلا:

-إلى أين تتوجهون في هذا الوقت من الليل؟. فرجوته أن يتكرّم بحملنا في عربته إلى قرية ديلامّا.

لأنني كنت تعباً جدا فقد غفوت، خلال دقائق، على تلك الجلود المدماة، ولم أفق حتى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي حين أيقظني حوذي العربة في ساحة قرية ديلاما. ونزلت من العربة ويوسف بين ذراعي وأنا أتذكر كل إنسان أصادفه، وهو بدوره يتذكرني جيداً، ولكني، بدون أن أسأل أو أتحدث إلى إنسان، مضيت باتجاه منزل أبي.

كنت أتذكر جيداً كل شارع وزقاق أمر فيه. وكنت في ذروة الخجل من نفسي وأنا في قريتي. وأخيراً بلغت بيت أبي القديم. وهنالك وقفت عند باب الحديقة أمعن النظر، من بعيد، إلى شيخ طاعن في السن يلاعب ولدين صغيرين. لقد كان ذلك الشيخ والدي، ولكن من هما ذانك الولدان الصغيران؟. تساءلت باستغراب بيني وبين نفسي. أما حديقة منزلنا فقد كانت يابسة ليس فيها شيء سوى العشب الأصفر الذابل.

هنالك، وقفت من بعيد ممسكاً يوسف بيدي، وأنا أتأمل أبي العجوز بالتياع ولا أتجرأ بالذهاب إليه، وتقبيل يديه في حين كانت حنجرتي تعتصر بنشيج محرق، وناح قلبي بصمت حين لمحت باب غرفتي مقفلا.

كان أبي قد شاخ كثيرا، وضعفت بنيته، واحدودب ظهره. أما تفكيره فقد كان، في تلك اللحظة محصورا، بذينك الولدين الصغيرين، ومن المحتمل أنه لن يعرفني إذا رآني. وأخيراً سأل ولدي:

-أبي ... لماذا تبكي؟. هيا لنذهب من هنا.

لقد كان يشدّني من يدي لأنه مقت هذا المكان الذي تسبّب في بكائي. فقلت له:
-بنيّ! هذا هو بيتنا، وذلك الرجل العجوز هو أبي، وتلك الغرفة الموصدة هي غرفتي. وهذه هي قريتنا القديمة التي ولدت فيها وترعرعت في بيتنا هذا. ومن تلك الغرفة انطلقت، هاربا، من هذا البيت. وقد عدت، الآن، نادماً لأطلب المعذرة من أبي راجياً أن يتكرّم بالصفح عني. فسأل يوسف باستغراب:
-إذا كان حقاً بيتك فلماذا تبكي يا أبي؟. ولماذا لا تدخل؟. فأجبته بقولي:
-بنيّ! اذهب، أولاً، إلى ذلك الشيخ. إن اسمه داود. سلم عليه وقل له: السلام عليك يا أبي داود. أنا ابن ابنك المدعو إيشاي.
فانصاع يوسف لقولي ومضى وهو خائف وخجلان ووقف بجوار أبي وأحنى رأسه وقال:
-السلام عليك يا أبي داود، وسكت.
فاقترب منه والدي، وبدأ يتحدث إليه ولكن يوسف لم يستطع إتمام الكلام الذي لقنته إياه، كما لم يستطع الردّ على أسئلة والدي فاقترب منه، آنذاك، أكبر الولدين ودفعه بقوة، وضرب بقبضة يده على فمه. فعاد يوسف راكضاً وهو يبكي. لكن أبي شدّ أذن ذلك الولد وأنّبه.
وصل يوسف عندي وقد أدمى قلبي حين وجدت فمه مدمّى. ثم مسحت دمع عينيه والدم الذي كان ينزف من فمه وأنا أقبله مواسياً في حين كان أبي واقفاً فوق رأسنا وبيده تفاحة حمراء قدمها ليوسف وهو يلاطفه. وبدون أن ينظر

في وجهي انحنى وقبّل يوسف وقال:

- خذ يا بنيّ، إن سركيس مجنون. ولكن يوسف أجابه قائلا بنزق:
- لا تحطّموا أسناني، ولا أريد تفاحكم. فضحك أبي ووضع التفاحة في جيبه وقال:
- لقد نطقت بالحق أيها الرجل الصغير. إن حفيدي حقاً لمجنون.

فلم أستطع الاصطبار أكثر من ذلك، وهرعت إليه وضممته إلى صدري وأنا أقبله وأبكي بمرارة طالباً منه الصفح والغفران. لم يفهم، أولاً، ماذا أعني بتصرفي ذاك. ولكنه، بعد لأي، عرف إني ابنه فلم يستطع أن يقول أكثر من (إيشاي... ابني... حبيبي) وأغمي عليه. فحملته بيت ذراعي وأدخلته البيت الذي كان خالياً من أهله. وعندما رششت الماء على وجهه استفاق من إغمائه، وضمّني بين ذراعيه وهو يبكي ويضحك ويهتف:

- آه يا ولدي لقد وُجدت. آه يا إيشاي ... وجدت.

وبدلاً من أن نرقص طرباً أجهشنا في البكاء لأكثر من ساعة. وامتزج بكاؤنا بالقبلات الحميمة، في حين كان يقف أولئك الصغار وهم يتأملوننا باستغراب ودهشة. وبعد أن نعيت له موت استير، ومصرع يوليوس تفاقم حزنه. وروى لي بلوعة عن موت أمي. وكيف أصبحت ضريرة بسبب الحزن على فراقي، وكيف توفيت بعد ذلك بثلاث سنوات. وبينما كان مسترسلاً في حديثه دلف من الباب رجل ضخم بدين. كان ذلك الشخص أخي بنيامين، وذانك الولدان كانا ولديه. أما ابني فقد وقف إلى جوارهما منكس الرأس كأنه خادمهما. وكان أخي قد تزوج من (ليّا) خادمة مولانا اسحق ووصيفة استير. إن ليّا هذه

هي ذاتها التي كانت رسول الغرام بيني وبين استير في سالف الأيام.
بعد ثلاثة أيام من مبيتنا، أنا ويوسف، في غرفة طفولتي. في تلك الغرفة التي ضربت فيها ذلك الكتاب الضخم على رأس أمي وأدميت فيها فم أبي. هنالك مكثنا ثلاثة أيام تحت سقف حنان وعطف والدي. وقد دعيت، بعدها، للمثول في المحكمة التي عقدها مولانا اسحق، وعدد غفير من الشيوخ الأجلاء.
هنالك في قاعة فسيحة من قصر استير اعتقلتُ، ويداي مقيدتان على مرأى ومشهد والد استير الراحلة، بالإضافة إلى كاهنين اثنين، وعدد من الشيوخ. وقد كان حاضراً في قاعة المحكمة صديقي گوليات الذي كان يجلس إلى جوار أبي.
طُلب إليّ أن أروي قصتي بالتفصيل. وبطريقة مخجلة ومزرية رويت لهم، وسردت على مسامعهم كل ما حدث منذ البداية حتى هذه اللحظة وبكل صدق وصراحة، وبدون أن أغفل شيئاً. ثم توسلت إليهم أن يفكوا وثاقي لأقبل يد مولانا اسحق، وأنا على استعداد تام لتقبّل أي حكم يصدر بحقي. فنهض مولانا اسحق، آنذاك، واقفاً وهو يمسح عينيه بمنديل أبيض ناصع وقال:

- أيها الأخوة المحترمون! هذا هو إيشاي قاتل ابني يوليوس وابنتي استير وملوّث شرفنا وهادر كرامتنا، فكيف استطيع الصفح عنه؟. كيف أدعه يدنو مني ويقبل يدي؟. وهل سيعيش ابني وابنتي إذا قبّل يدي؟. إني أقترح أن يحكم عليه بالشنق حتى الموت. ولكن كرمى لأبيه داود، وعرفاناً بخدمته الأمينة لن أحكم عليه بالموت، ولكن ينبغي أن يحكم عليه بالسجن المؤبد.

ثم جلس بوقار. فوشوش، آنذاك، ذانك الكاهنان في أذني بعضهما، ثم ما لبث أن نهض أحدهما واقفاً وقال:

- أيها السادة! يحق لكل إنسان أن يقاتل بشراسة من أجل سمعته وشرفه. لقد ثأر يوليوس ابن مولانا لشرفه المثلوم من أخته استير. وانتقم إيشاي من يوليوس لأستير التي كانت سبباً في ارتكابه هذا الخطأ الجسيم مدفوعاً بيد الحب المقدس، وجنون المراهقة. والآن، وبما أن مولانا اسحق قد فقد ابنه وابنته، وليس له أي أخ فنحن نقترح بأن يؤخذ ابن إيشاي ويُعطى لمولانا ليحلّ محل يوليوس.

انبثق گوليات من بين الجمع وهتف:

- اخوتي المحترمين! أنا هو الشخص الذي قاد إيشاي واستير إلى مقربة من خابورية، وقد عاشا في كنف عمي الكاهن أخيقار وتحت رعايته. والآن، ورغم أني لست من أبناء قرية ديلاما ولكن واجب الأخوة والمحبة الصادقة حتّم علي الحضور إلى هنا لأدافع عن السيد إيشاي بالحق، وهذا هو اقتراحي: يجب أن يُقتل إيشاي، أولاً، لكي يؤخذ ابنه منه. لأنه لا يجوز، وليس من الحق أن تسلبونه ولده طالما هو على قيد الحياة.

وقف بعده رجل أصلع كبير الرأس وقال:

- أيها السادة! إننا نستطيع أن نأخذ ابنه. ونستطيع، في الوقت ذاته، أن نحكم عليه بالسجن مدى الحياة.

لدى سماع يوسف هذا الحكم الجائر ترك أخي بنيامين وهرع إليّ وتشبث برجلي وهو يبكي ويصيح:

- أبي! إنهم يخطفونني منك. سأموت. لا تدعهم يأخذونني. لا تدعهم يا أبي.

فحملته، آنذاك، وقبلته مرات ومرات وأنا أسكب في كل قبلة عصارة قلبي وروحي. واقتلعوه من صدري، واختطفوه مني بلا رحمة. ودفعوني، بقوة، عبر باب ضيق داخل زنزانة مظلمة لأبقى هناك إلى أن تنتقل روحي إلى جوار استير لأشكو إليها ظلم أبيها الذي سلب ولدنا الوحيد.

انتهى

المؤلف: ميشائيل لازار عيسى

ولد من والدين آشوريين (لازار وإيلشوا) في قرية كَنكاجين في أورميا في 26 آذار 1918، وكان في الرابعة من عمره عندما هجّرتْ عائلته مع جميع الآشوريين الذين كانوا في أورميا هربًا من إضطهاد الجيران. كان ميشائيل الابن البكر والثامن في سلسلة إخوانه: ستة أبناء (ميشائيل، وأويشالم، وشمشون، وفنوئيل، ويوئيل، وشموئيل، وشقيقتان: باتشوا وكرستينا).

بعد مكوث عائلته ثلاث سنوات في معسكر اللاجئين في بعقوبة، انتقلت مع عدد كبير من أبناء كَنكاجين إلى معسكر ميناس في جنوبي بغداد. بدأ ميشائيل تعليمه في مدرسة الكنيسة البروتستانتية (المدرسة الإنجيلية الآثورية/ مدرسة التقدم الأهلية الآثورية) في بغداد التي كانت تضم في ذلك العهد تسعة صفوف، والتي كان يديرها القس خندو يونان. وبسبب فقر الحال والحاجة، يترك المدرسة بعد أن أكمل الصف السابع ليعمل من أجل مساعدة والديه وإخوانه الصغار. تعلم ميشائيل في مدرسة قاشا خندو اللغة الأم والإنكليزية، وبانت عليه وهو في سن السابعة عشر مواهب الكتابة والأدب، وغدت تنمو في شخصه، كان دائمًا يقول: "أنا عبدٌ ضعيف للغة والأمة الآشورية".

وفي العام 1936 يرحل مع والدته وإخوانه إلى معسكر الحبانيّة، إذ كان آلاف الآشوريين يعملون في خدمة القوات الملكية البريطانية. إقترن ميشائيل بشريكة حياته السيدة يوليطي، ابنة القس اسحق أوديشو دانهَر في سنة 1943، ومن هذا الزواج ولد ابنَا واحدًا (بانيبال) وثمان بنات (شميرام، وهيليني، ودومارينا، وعَدرينا، ونَردينا، وباسينا، ولينا, ونهرين).

بدأ ميشائيل منذ نهاية الأربعينيات يكتب القصص، والتمثيليات الدرامية، والقصائد باللغة الأم وبحماس ملحوظ، ومن تمثيلياته نذكر ــ على سبيل المثال: "صدى الخطأ" التي قدّمت في بغداد وكركوك، إذ أدار العمل بمهنية عالية مما ضمن نجاحه. ومن أجل كسب قوته، عمل ميشائيل في أشغال مختلفة: محاسبًا، وميكانيكيًا، ومشرفًا على العمال في شركة كبيرة في بغداد.

توفي الأديب ميشائيل في 25 آذار 1962 في الدورة ببغداد، وكان موته خسارة كبيرة، اولاً لأهله، وثانيًا لأمته. وقد ترك كنزًا ثميناً من القصص والتمثيليات والقصائد، لكن بموته المبكر حُرم الأدب الآشوري من ثمار قلمه الذي كان سيلد أعمالاً أخرى تخرج من رأسه المبدع، وخياله الخصب الذي كان يتمتع به هذا الأديب المبدع في حقلي القصة والرواية. لا نستطيع أن نعطي حقه في الكتابة عنه، لكن أعماله الأدبية سوف تتكلم عن منجزه الإبداعي، وسوف يتعرّف القراء على مهارة هذا القاص الذي كتب

كما أشرنا في حقول مختلفة، وعالج شؤوناً كثيرة: اجتماعيّة، ودينيّة، وقوميّة.

كتب 31 قصة قصيرة، و11 تمثيلية، ومقالتان فلسفيتان، ومجموعة كبيرة من القصائد والأغاني، من أعماله القصصية والروائية المطبوعة: جوهرة أمام الخنازير، بابنا الموصد، خاميس ذو القلب الحديدي، ومجموعة من قصصه القصيرة (مصدر الانقسام، عيد الحصاد، الحاكم خوشابا، وردية النينوية، الجوهرة التي أمام الخنازير (تعد طبعة ثانية)، نينب وشوشن.

أما غير المطبوعة فهي:

القصص القصيرة:

قصر الجنة، وبَودَيسيا، و آشور الوديع، ونِنياس وآريمار، والحب والدم، ومسرحية الحياة، وديلانوس وابناؤها، أخ وأخ، وضياء في الظلام، ونادينا الغريبة، والطريق المقطوعة، والزواج الحزين، وملكة السجّان، وأنا وذاتي، ومؤازرة الشيخوخة، والكاهن والإنسانية.

التمثيليات الدرامية:

إيمان مجبول بالدم، والمساكين، ونِنياس الدوّار، وصدى الخطأ، وبانيبال المشاكس، والدموع والرحمات، وبيت بلا سلام، والإيمان أو العلم، إيشاي وياريما، وآدينا الجميلة، وخطوبة جيري وزيانو.

مقالات فلسفية:

سلسة العلم، وجوهرة الحياة.

الأعمال المفقودة:

ملكة الظلام، والراعي الصالح، وفنوئيل وراوينا، وحديقة المِنّة، وعكس الخطأ، وأم في السواد.

آدم دانيال هومه

* من مواليد 2-3-1946 في قرية ولطو (تل نصري) في محافظة الجزيرة السورية.

* بدأ بنشر نتاجه الأدبي في الصحف العربية وخاصة السورية واللبنانية تحت اسم (عبد الحرية آشوري) وعمره لا يتجاوز الثالثة عشرة.

* أنهى الدراسة الثانوية في مدينة الحسكة/سوريا، وتخرّج من جامعة الإسكندرية في مصر، كلية الآداب– قسم اللغة العربية وآدابها.

*عمل مدرساً في ثانويات محافظة الحسكة حتى هجرته إلى استراليا أواخر عام 1985 من القرن الماضي.

أهم الانجازات :

* أصدر أول ديوان خواطر وشعر بعنوان (الزورق التائه) عام 1967.

* أصدر ديوانه الشعري الثاني باسم (أوراق ملوّنة من مفكرة إنسان) عام 1973.

* أصدر ديوانه الشعري الثالث (آشورية) عام 1976.

* ترجم ونشر من الآشورية إلى العربية كتاب (من نحن) للدكتور بـــيره سرمس عام 1978 في لبنان.

* ترجم ونشر من الآشورية إلى العربية قصة (بابنا المغلق) لرائد القصة الآشورية ميشائيل لازار عيسى عام 1983 في سوريا.

* ترجم ونشر كتاب (الرؤساء) لمالك ياقو مالك اسماعيل.

* ترجمم ونشر(قصة وأمثال أحيقار الحكيم) باللغات الآشورية والعربية والإنكليزية.

* كتب كلمات معظم أغاني الفنان الخالد جورج هومه.

* أول شاعر من محافظة الحسكة يُمنح عضوية اتحاد الكتاب العرب.

مخطوطات جاهزة للطبع:

* ترجمة كتاب (الآشوريون والحربان العالميتان) لمالك ياقو مالك إسماعيل إلى العربية.

* ترجمة (رحلة القس صليبا إلى السماء) للقس شموئيل دكوكتابي.

* الأعمال الشعرية، الجزء الأول.

* مقومات الأمة الآشورية، دراسة وبحث تاريخي.

* الآشوريون والأكراد في التاريخ. دراسة تاريخية وتحليلية.

* الموسوعة الآشورية.

أعماله القصصية والروائية المطبوعة:

1. جوهرة أمام الخنازير
2. بابنا المغلق
3. خاميس ذو القلب الحديدي

ومجموعة من قصصه القصيرة

1. مصدر الانقسام
2. عيد الحصاد
3. الحاكم خوشابا
4. وردية النينوية
5. الجوهرة التي أمام الخنازير (تعد طبعة ثانية)
6. نينب وشوشن.

أما غير المطبوعة من القصص القصيرة فهي:

1. قصر الجنة
2. وبَودَيسيا
3. آشور الوديع
4. وبِنياس وآريمار
5. والحب والدم
6. ومسرحية الحياة
7. وديلانوس وابناؤها
8. أخ وأخ
9. وضياء في الظلام
10. نادينا الغريبة
11. الطريق المقطوعة
12. الزواج الحزين
13. ملكة السجّان
14. أنا وذاتي
15. مؤازرة الشيخوخة
16. الكاهن والإنسانية.

ميشائيل لازار عيسى

ولد من والدين آشوريين (لازار وإيلشوا) في أورميا في 26 آذار 1918، وكان في الرابعة من عمره عندما هجّرتْ عائلته مع جميع الآشوريين الذين كانوا في أورميا هربًا من إضطهاد الجيران.

بعد مكوث عائلته ثلاث سنوات في معسكر اللاجئين في بعقوبة، انتقلت إلى معسكر ميناس في جنوبي بغداد. بدأ ميشائيل تعليمه في المدرسة الإنجيلية الآثورية/ مدرسة التقدم الأهلية الآثوريةفي بغداد، التي كان يديرها القس خندو يونان. وبسبب فقر الحال والحاجة، ترك المدرسة بعد أن أكمل الصف السابع ليعمل من أجل مساعدة والديه وإخوانه الصغار. تعلم ميشائيل في مدرسة قاشا خندو اللغة الأم والإنكليزية، وبانت عليه وهو في سن السابعة عشر مواهب الكتابة والأدب.

بدأ ميشائيل منذ نهاية الأربعينيات يكتب القصص، والتمثيليات، والقصائد باللغة الأم، إذ كتب 31 قصة قصيرة، و11 تمثيلية، ومقالتان فلسفيتان، ومجموعة كبيرة من القصائد والأغاني. توفي الأديب ميشائيل في 25 آذار 1962 في الدورة ببغداد، وبموته المبكر حُرم الأدب الآشوري الحديث من ثمار قلمه المبدع.

الناشر